مجموعة قصصية

دِيك سُعاد

أحمد عبد العزيز

اسم السلسلة: (كتابات)
اسم العمـــل: ديك سعاد
المؤلـــــــف : أحمد عبد العزيز
رقم الإيـــداع : ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

سلسلة (كتابات) تصدرها مؤسسة المعبر الثقافي
٢٣ شارع عبد الخالق ثروت ـ الطابق الرابع ـ القاهرة
هاتف: ٠١١١٧٧٢٨٨٩٦ ـ ٠١٠١٢٩٨٢٤٨٢
٠١٢٧١٧٧٩١١٦

الغلاف
نزار مغاوري

الطبعة الأولى
سبتمبر ٢٠١٦م
ذو الحجة ١٤٣٧هـ

المحتويات

ـ الرسالة..... ٥
ـ اللقاء..... ٨
ـ وعادت امرأة..... ١٣
ـ دم..... ٢٥
ـ احتلال..... ٥٩
ـ ٦ شارع بلال..... ٦٢
ـ ديك سعاد ٦٨
ـ حلم فرح ١٠٢
ـ دموع الرجال تخاصم الجنائز..... ١١٨
ـ ضحكة ميت ١٢٣
ـ وصية..... ١٢٨
ـ ملابس جديدة بيضاء..... ١٣١

الرسالة

التقت فلانة بفلانة بفلانة بفلانة في إحدى كافيهات وسط البلد وكل واحدة منهن تمسك بيدها بطفل أو طفلين أو ثلاثة..

اقترب منهن نادل الكافيه وتحدث مبتسماً:

ـ «مساء الخير.. أعطاني السيد فلان هذه الرسالة أقدمها لكن حال وصولكن جميعاً بعد أن حجز لكن هذه المنضدة منذ أسبوع مضي وطلب مني أن أقدم لكن هذا السكين مع الورقة».. ثم انصرف مبتسماً..

نظرت فلانة إلى فلانة علها تجد تفسيراً عند فلانة أو فلانة وخصوصا أنهن جميعاً لا يعرفن بعضهن البعض..

فهذه هي المرة الأولى التي يلتقين فيها..

مدت فلانة يدها وكان يبدو عليها العصبية والتوتر أكثر منهن جميعاً تمسك بالرسالة وتبدأ بقراءتها قبل أن تقاطعها فلانة:

بعد إذنك إقرى بصوت عالى، أكيد الكلام ده لينا كلنا –

لم ترفع فلانة عينيها من الورقة ولكنها رفعت صوتها تسمعهن جميعا ما خطه فلان في رسالته الغريبة الغامضة:

عزيزتي زوجتي الجميلة/ فلانة

وعزيزتي زوجتي الحبيبة/ فلانة

وعزيزتي زوجتي والصديقة/ فلانة

وعزيزتي زوجتي الفاتنة/ فلانة

أعتذر لكن جميعا علي غرابة تصرفي وإن كنت توصلت له بعد الكثير والكثير من التفكير، لا أظنكن في حاجة لأعرفكن بعضكن البعض فمن كلماتي السابقة علمتن أنكن زوجاتي الأربع.. أعلم أني مخادع وأناني عشت كل هذه السنوات أحفظ هذا السر وحدي ولا أشارككن إياه.. ولكنه حرصي ورغبتي في حفظ ما تظنه كل واحدة منكن عني وعن قصتي معها..

نعم أحبكِ ولا أستطيع العيش بدونك..

نعم لم أكذب عليكِ يوماً في إحساس..

نعم عشت معكِ كل يوم بألف يوم..

أقول هذا لكن جميعاً وأعلم أنكن تصدقن وإن كنتن مندهشات..

لم يعد فيَّ من قوة بعد اليوم أن أعيش كل هذه الحيَوات في حياة واحدة أعاني وحدي فيها من ضغوط ورغبة في استمرار كل شيء كما يجب أن يكون، الآن علمتن ما فعلت، الآن أمامكن سكين حاد قاتل.. إما أن تقتل إحداكن نفسها أو تقتل غيرها أو تشتركن جميعاً وتقتلنني..

لن أقترح عليكن ما تفعلن ولكني أصدقكن وأشهدكن أني أحبكن

جميعاً ملء قلبي..

أنتظر القرار..

الزوج المخلص/ فلان

***

التقت نظرات الأربع في محاولة للفهم ومحاولة لاتخاذ القرار..

تساؤلات من نوعية: من تكون هذه؟ هل هي أجمل منى؟... أم أنا الأجمل؟

أم هذه؟... أم هذه؟

مسحت الأعين الوجوه والأجساد كل واحدة تقارن بين نفسها والأخريات:

لماذا أحب فلانة ولماذا فلانة؟؟

من منا الأولى ومن الثانية ومن الثالثة ومن الرابعة؟

من هي الأفضل لديه؟ من هي الأقرب إليه؟

مر الوقت سريعا، لا بل بطيئاً جداً جداً كأنه لا يمر..

دقيقة؟ دقيقتان؟ أكثر؟..

نظرن في كل الاتجاهات..

لكن لم تنظر أي منهن للسكين..

اللقاء

لدقائق صوت غليظ يعاديني، يتحداني، يصرخ في وجهي يعايرني بشماتة، مازال أمامك بضع ساعات قبل اللقاء..

تسمرت عيناي على عقارب الساعة أتابع حركتها البطيئة المملة في ترقب تسبق أنفاسي عقربها الصغير..

اليوم ألقاها بعد كل تلك هذه السنوات..

أخبرتني أختي الصغيرة أن عبير جارتنا القديمة تعود لمنزلهم اليوم هي وأسرتها من الخارج..

عبير... مر عشرون عاما منذ آخر لقاء لنا فوق سطح بنايتنا وهى تبكى ويكسو وجهها الألم وهى تخبرني أن والدها قد حدد موعد زفافها بداية الأسبوع المقبل..

كنت أنتظر أيامي الأولى في الجامعة بعد انتهاء مرحلة الثانوية العامة..

أما هي فقد كانت تنتظر نهاية قصة حبنا بزواجها المبكر من ابن خالتها المغترب الذي قررا والدها أن تتزوجه وترحل معه لبلاد النفط زوجة صغيرة لا تخطئ العين جمالها وبراءة ملامحها..

بكينا في هذا اليوم حتى ابتل كفها الصغير وهو يحضن كفى الحضن

الأخير في محاولة بائسة أن لا يتركه..

لم يكن بوسعنا سوى البكاء..

لم نملك حتى وقتها حق الاعتراض..

كنت ما زلت هذا الفتى الصغير المحمل بالأحلام والأمنيات وقلب بريء لم تلوثه الأيام مفعم بحبها..

هذه الفتاة الجميلة التي مازلت أراها بملامح طفولتها وضفائر شعرها الأسود اللامع تحمل ابتسامة تستطيع أن تكسو الأرض حبا وسلاما..

عشرون عاما مرت كانت بالكاد تكفى أن تجعل منى رجلا في منتصف الثلاثينات يكن له الجميع الاحترام لما وصل له من نجاح في عمله وحسن خلقه وبياض سيرته..

وان كان بعض المقربين يسألني في فتور: أما آن الأوان أن أتزوج وأكمل اللوحة البراقة التي يحبها المجتمع..

لم يخلُ الأمر من عدة محاولات عبثية في البحث عن بورتريه جميل براق يملأ ما تركه وجه عبير الملائكي في جنبات قلبي وانتهت كلها بهزلية تتناسب مع كذب البدايات..

تسكنني هذه الطفلة التي كانت تحمل الحلوى في ملابسها تقدمها لي بابتسامتها الحانية في مسرح فصول قصتنا فوق سطح البناية القديمة ونحن نقف خلف سوره القديم ننظر للدنيا من أعلى يملؤنا الأمل نحو المستقبل.. فلم تكن قلوبنا حينها تعرف أن اللوحات الجميلة أحيانا قد رسمت بدماء فنانها..

أتحسس كفى من حين لآخر وأنا أنتظر وصولها.. أتذكر تلك الدموع الساخنة التي ارتوى منها في آخر لقاء..

كيف أصبحت عبير؟

كيف عاشت؟... وماذا فعلت في تلك السنين؟

وماذا فعلت فيها العشرون عاما؟؟

لم أعد أستطيع الصبر أكثر من هذا، سأذهب إلى هناك..

سأنتظرها كما اعتدت دوما الانتظار فوق سطح بنايتنا..

دقات قلبي تتسارع اسمعها بكل وضوح..

تختبئ خلف زهريات الصبار على سور السطح رعشة يدي..

توقفت سيارة سوداء كبيرة الحجم من هذا النوع الذي يحمل لوحات معدنية صفراء اللون كتب عليها «جمرك»..

فتحت الباب الخلفي وأطلت برأسها تنظر نحو البيت وترمقني بنظرة مملوءة بالفرحة..

إنها هي عبير كما رأيتها آخر مرة تماما..

لم تتغير أبدا.... إنها حتى لم تكبر بحكم السنين..

ملامحها كما هي بريئة نقية تسبقها ابتسامتها..

هرولت تاركا مكاني تسع قفزاتي لأسفل ثلاث درجات من سلمنا القديم..

لن أنتظرها بل سأذهب إليها..

وأخيرا التقيتها... ها هي أمامي مباشرة..

كم اشتقت لتلك العيون وتلك الابتسامة..

عبير كما هي لم تتغير مطلقا..

لكنها..

لكنها.. أصبحت أطول قليلا..

عيناها أصبحتا عسليتين!!!

تحمل وجنتاها غمازتين لم توجدا من قبل..

اختفت الندبة بالغة الصغر بجوار حاجبها الأيمن كأنها لم توجد من الأصل..

ارتعشت شفتاي وكاد عقلي ينفجر قبل أن يرغم قلبي لساني على نطق أحب الأسماء إليّ: عبير

ـ إزيك يا عمو.. أنا سيرين.... بنت عبير..

غاصت قدمي في دهشة لزجة وأحسست بدوار شديد عقد قلبي ولساني وأنا أمد يدي المرتجفة أصافح سيرين ابنة عبير وألمح بما تبقى من حواسي شبح عبير يأتي من الخلف تحمل طفلا صغيرا وبجوارها طفل أكبر ظهر فجأة كان يختبئ خلف جسدها الممتلئ العريض..

امتدت يد عبير المكسوة بالحنة الخليجية والأساور الذهبية نحوي وهى تتصنع الحميمية

ـ إزيك يا أحمد... عاش من شافك.. والله ليكم وحشة..

ـ إزيك يا عبـ..... يا أم سيرين..حمدلله على السلامة..

مرت سنوات عمري في لقطات سريعة متلاحقة وأنا اتركهم عائدا لسطح بنايتنا القديمة..

أضحك كما لم أضحك من قبل وأنا لأول مرة أحاول أن أتذكر وجه عبير وأفشل.. فقد كان وجه سيرين يحول دون ذلك ويقفز أمامي..

وجه سيرين الخالي من الندبة الصغيرة..

وعادت.. امرأة

دائما هناك وجوه أخري، عالم موازٍ، حياة أكثر صدقاً وألماً نفعلٍ كل شيء من أجلها، نعيشها بكل بؤسها ونحن نضحك زوراً وزيفاً فقط لنقول إن هذه الحياة البائسة لم تعرف يوماً الشقاء..

امتدت ذراعا حنان تلفهما خلف رقبة فكري وهى تقرب شفتيه من شفتيها تطلب قبلة من نوع خاص وهو يجثو بجسده الرياضي الثقيل فوقها في حركة عصبية عنيفة تخلو من العاطفة وهو ينهى لقائهم الشهري المعتاد التقليدي قبل أن يرتمي بجوارها تفوح منة رائحة العرق ويعطيها ظهره مستسلما للنوم..

قامت حنان من جواره وهى تحرك ردائها من محبسه فوق صدرها لينسدل على جسدها يدارى عورتها متجهة إلى الحمام..

وقفت أمام مرآة الحمام المشوشة تنظر في وجهها وقد تلطخ بما تبقى من مساحيق التجميل وتتحرك فوق جبينها حبيبات العرق تنسدل من خصلات شعرها الثائر المتحرك في كل اتجاه..

لم تستطع منع دمعة تسقط غصبا عنها وهى تبكى حالة مع زوجها البارد المشاعر الذي لم يكلف نفسه مرة واحدة على مدار عشرة أعوام عناء البحث عن مكنون نفسها ومواطن سعادتها.. لقد اعتادت منة البرود واللامبالاة وعدم اكتراثه مطلقا بمشاعرها ورغباتها التي قاومت

كبريائها مرات ومرات وهى تعلن عنها في محاولة بائسة منها لتوجيه ثورها المتكبر بحثا عن سعادة قصيرة حتى وان كانت زائفة..

انتهت حنان من حمامها وترتيب ما أفسده هذا اللقاء الممل السريع قبل أن ترتدي ملابسها وتتوجه لعملها اليومي الذي لم تتخلف عنة لسنوات عدا تلك الإجازة المعتادة التي تحظى بها المرأة العاملة بعد أن تأتى للدنيا بعنصر جديد يشارك في إفسادها وتدمير طبيعتها..

اختبأت حنان خلف مكتبها تطالع الأوراق وتخط بقلمها في خانات الأرقام كما اعتادت كل يوم وهى مازلت تفكر في حياتها..

إنها لا تتذكر يوما أنها حظت بنشوتها كما تسمع من الأخريات ولا تتذكر أنها نامت ليلة قريرة العين تحتضن زوجها من فرط حبها له..

مرت سنوات زواجها كأنها لم تحدث حتى أنها لا تتذكر منها إلا القليل الذي يصلح فقط لقصص الأطفال

كان فكري مشغولا طوال الوقت بحياته وصحته وحفاظه على لياقته البدنية وعالمه الصغير الذي لا يحمل من التفاصيل سوى النادي والعمل وأحدث خطوط الموضة..

فتشت حنان في ذاكرتها علها تجد ما يؤنس قلبها أو يعوض مشاعرها المحرومة ولم تجد سوى تلك الأفكار التي كانت تصاحبها منذ أن كانت طفلة..

هذه الصورة البراقة لفارس الأحلام الوسيم المفعم بالمشاعر والذي يملئ الدنيا بهجة ومرحا وتصير معه الأيام كقصيدة شعر حر لا تخلو من مواطن الجمال ولا تعترف بنظم أو تنسيق..

كم كانت تمنى نفسها وهى البنت المتفوقة المتميزة صاحبة الأحلام الكبيرة أن تحيا حياة مختلفة متميزة لا يضاهيها فيها احد من أقرانها فهي البنت المثقفة الجميلة التي لم ترضَ يوما بأنصاف الحلول أو أشباه الحياة..

توقفت طويلا وهى تتذكر بغضب تلك الأيام التي اجتاحتها طلبات عائلتها بضرورة الزواج قبل أن يتركها قطار الزواج ويغادر محطتها وكيف انهارت قواها ولم تستطع المقاومة ورضخت أمامهم وتقبل الزواج من (فكري) الشاب الميسور ابن العائلة الكريمة ذات الأصول المشرفة..

أفاقت حنان من شرودها على صوت هاتفها المحمول يحمل اسم زميلها عمر.. زميلها في العمل الذي طالما لاحقها بنظراته التي لم تخطئها عيناها.. نظرات الإعجاب الشديد بها وبجمالها وكيف أنه يعاملها برقة ملحوظة ويخصها بهذه المعاملة دون أسباب..

ـ الو.. إزيك يا عمر..

ـ إزيك يا حنان.. كنت حابب أقعد معاكى نشوف الميزانية الأخيرة..

ـ تمام.. أنا جهزت كل الأوراق ومستنياك تراجعها

ـ أنا بكلمك علشان كده محتاج أقعد معاكى شوية أسألك عن شوية حاجات قبل ما أعتمدها وأقدمها..

ـ زى ما تحب أنا موجودة في مكتبي..

ـ لو فيها قلة ذوق ممكن تجيلي مكتبي أنا في انتظارك

ـ تمام دقيقة وأبقى عندك

تقدمت حنان نحو عمر تصافحه قبل أن تلقى بجسدها الذي أنهكته الأفكار على مقعد بجوار مكتبه.. ومرة أخرى وجدت نفسها ترجع لشرودها تتذكر تلك الليالي الطويلة الصيفية التي كانت تقضيها وحيدة في غرفتها تنتظر عودة فكري دون جدوى لتشعر ببرودة الوحدة في قلب الصيف.. وكيف كانت تستقبل عودته بابتسامة مصطنعة عله يعوض غيابة بكلمة حانية أو لمسة حب.. دون جدوى..

كانت تجلس ممددة في البانيو تختلط دموعها بمائه وهى تتحسس جسدها بأناملها في محاولة مثيرة للشفقة لتعويضه عن إهماله وإهمال متطلباته ورغباته..

انتزع صوت عمر حنان من تخيلاتها وهو يناديها:

ـ حنان... حنان... حناااان..

ـ أيوه... نعم.

ـ نعم إيه يا بنتى؟ ده انتى مش معايا خالص!! بكلمك وانتى ولا انتى هنا..

لم تجب حنان، فقط انخرطت في بكاء شديد وهى تدفن رأسها في كفيها تبكى حالها بحرقة وألم..

اقترب منها عمر مذعورا لردة فعلها وهو يربت على كتفيها محاولا تهدئتها وفهم ما بها:ـ إيه يا حنان مالك؟!!

***

ـ اهدى بس وفهمينى في إيه..

جلس عمر على المقعد المقابل وما زالت يده تربت عليها ولكنها الآن فوق ركبتيها محاولا تهدئة روعها، قبل أن تملك حنان نفسها نوعا ما وتحاول أن تجيبه..

ـ مالك؟... حصل إيه؟ احكيلى إحنا أصدقاء..

ـ مفيش يا عمر شوية تعب وإرهاق مش اكتر..

ـ وهو التعب والإرهاق يخلوكى تبكى بالشكل ده؟!!

ـ أبدا والله مفيش.. مضايقة شوية..

ـ إيه؟ خير؟ حاجة في البيت..

مرة أخرى تفقد حنان قدرتها على الصمود وتنخرط مجددا في البكاء مما جعل عمر ينهض هذه المرة وهو يقف بجوارها يكاد يلامسها وهو يسند كتفها الأيسر علي جسده ويربت على كتفها الأيمن بكفه..

ـ انتي زعلانة مع فكرى؟

ـ أنا.. أنا... اااا.....

ـ طب ما تتكلميش خالص، ممكن نخرج من هنا نروح مكان تانى لحد أعصابك ما تهدى..

لم تستشر حنان عقلها للمرة الأولى في حياتها وهى توافق عمر وتنهض موافقة على الخروج معه.. لم تدرى بنفسها وهى تترك لسانها يكشف حياتها ويعري تفاصيلها أمام عمر وهى تصف حياتها

ومشاعرها وحرمانها ووحدتها..

كانت تحتاج لمثل هذا النوع من السقوط والانهيار الذي يجعلنا نعرض كل جوانبنا الخفية ونعطى الإشارة للعقل عن التوقف عن المحاسبة والتقدير..

كان عمر دون تخطيط هو الشخص الذي نال هذه اللحظة الخالية من أي حسابات أو تحفظ حتى أنها لم تلحظ أن عمر كان ممسكا بيدها وهى تسرد عليه حياتها دون حتى ورقة توت كما لو كانا عاشقين اعتادا الجلوس والمناجاة..

لم تسحب يدها أو تستغرب أو تسأل نفسها: لِمَ تصمت ولِم فعل هو هذا؟

فقط تركت نفسها تتحرر من قيد غليظ أحاطها لسنوات..

استمعت لكلماته دون وعى كأنها مخدرة وهو يطيب خاطرها ويرثى حالها وكيف أنه كان طوال الوقت مستاء مندهشا كيف تكون هي بكل جمالها وأنوثتها زوجة هذا الرجل الغليظ؟..

استرسل عمر في وصف جمالها ورقتها وكيف أنه منذ التقاها كان يتمنى الزواج منها وأنه حاول قديما لفت انتباهها دون جدوى وأنها كانت مشغولة طوال الوقت بعملها وصناعة مستقبلها حتى أنها لم تكن تراهم أو هكذا كانوا يظنون..

كيف كان متيما بعينيها الواسعتان وكم من الليالى سهر يغنيها ويمدحها حتى زهد في حلمه بعد زواجها وتزوج هو الآخر ليحي حياة ليست ببعيدة عن حياتها مع زوجها..

تلك الحيوات التى نحياها فقط لأنها كتبت علينا..

عادت حنان في هذا اليوم لبيتها امرأة مختلفة، إنسانة جديدة..

عادت امرأة.... تشعر لأول مرة منذ سنوات أنها أنثى ترغبها القلوب ويعجب بها الرجال..

تعددت اللقاءات بينها وبين عمر خارج أروقة العمل، تجلس معه تحكي مرة وتسمع مرات ومرات..

أصبحت الآن مدركة أنه يمسك يدها، وكيف لا تدرك هذا وهو يقبل يدها من وقت لآخر؟!

كيف لا تدرك هذا وأصبحت تودعه بقبلتين على وجنتيه قبل أن تعود لبيتها كل مساء؟

كيف تكون مغيبة فاقدة للوعي وهى تسمعه لساعات يعاود وصف عينيها وعشقه لها ويثنى على جمال جسدها؟

هل أحبته؟؟

لا تعرف، لكنها تحتاج إليه.. إلى لمساته.. إلى كلماته.. إلى غزله..

تحتاج أن تشعر أنها أنثى.. تحتاج ملمس يد تعوضها غير يدها في حمامها الصغير

مر أسبوع... أسبوعان... شهر..

لا تعرف كم مر من وقت قبل أن تذهب معه راضية لبيته في غياب

زوجته..

كانت تفتش من جديد في ذاكرتها عن هذه الصورة القديمة المحفورة داخلها للفارس المبتسم الذي كانت تحلم به..

كانت تعتصر عقلها وهى تحاول عبثا كشف تفاصيل ملامحه غير عابئة بيد عمر وهى تجدرها من ملابسها و يختلط العرق من جديد..

إنه عمر وليس فكرى لكنها تشعر أنها ما زالت تحت جسد فكرى الثقيل..

الأعين الجاحظة من فرط الشهوة المجردة، الأنفاس السريعة العالية التي تحمل رائحة التبغ..

تلك الضربات القاسية التي تصل قلبها تبكيه ألما وندما..

لقد اقتحم عمر حصنها الذي لم يعد طاهرا بريئا بعد اليوم..

لقد عاد لها الآن وعيها وأصبحت تدرك ماذا فعلت بنفسها وأين وصلت في رحلة بحثها عن الأنثى بداخلها..

عادت حنان لأيام وأيام تغلق باب حمامها عليها تتمدد داخل البانيو ولكن يدها الآن تحضن عينيها اللتين يحبهما عمر ويتغزل فيهما وهى تبكى وتبكى وتبكى بحرقة ولا تعرف إجابة في رأسها: لماذا فعلت هذا؟

لكنها كانت تشعر بغبطة أنها انتقمت من فكرى وبحثت عن سعادتها..

تشعر بالسعادة أنها أصبحت تجد اللوعة والرغبة في عيني عمر ولا تجيبه..

تشعر بالسعادة لأنها عادت امرأة تنتقم من هذا وتلوع هذا..

تغيرت حنان وتغيرت ملامحها البريئة..

أصبحت الآن تبحث بين أعين الرجال عن عيني فكري الباردة أو عيني عمر الجائعة..

أصبحت ملابسها أكثر إثارة وابتسامتها أكثر مكرا..

أصبحت في تحدٍ مع الرجال لا يرضيها غير أن ترى الرغبة في أعينهم والإعجاب وان تسمع عبارات الغزل وتبتسم لصاحبها تحت دعوى المجاملة والإطراء..

نسيت وتناست الصورة القديمة صورة الفارس المبتسم تلك الصورة التي بلا ملامح المشوشة بلا تفاصيل..

حتى هذا اليوم عندما دخل عليها مكتبها شريف العميل الجديد..

الآن فقط أصبحت الصورة القديمة المشوشة أمام عينيها بكل وضوح..

إنه هو... الفارس الذي طالما حلمت به وانتظرته حتى يئست أنه موجود..

التقت الأيدي بالسلام والأعين بالشوق وتلعثم شريف الذي أصيب بعدوى الحب وإن كان يحملها من قبلها..

كلمات متفرقة وأسئلة بلا هدف ولقاء ينتهي سريعا حتى لقاء اليوم التالي..

جلسة أطول تضمنت الكثير والكثير إلا الحديث عن العمل..

إنه الحب الأزلي القابع في قلوبنا لسنوات وسنوات ويخرج منها ماردا عملاقا فجأة عندما نلتقي بنصفنا الآخر..

النصف المكمل لقصة حبنا الأبدية..

أقبلت حنان عليه بكل قوتها ولوعة انتظارها له لسنوات وتقدم شريف نحو بأسرع منها وهو من طال بحثه عنها في كل الأعين والنفوس..

تصارحا... تحدثا... تواعدا..

أخيرا التقى العاشقان... وأخيرا اكتملت قصتهما بلقاء..

كان شريف شغوفا بها.. بحياتها بما مضى منها وكيف عاشت من دونه أعواما طويلة دون لقاء أو أمل في لقاء..

اعترف أنه جرد قلبه من الإحساس من مدة طويلة وعاش بلا هدف أو أسباب..

تغيرت بهما الحياة وتغيرا بما جد في الحياة..

أصبح وجودهما معا أمرا مألوفا اعتادته الأعين..

حتى عينا عمر اعتادت وجودهما واجتاحت صدره نار الغيرة والكره والإحساس بالهزيمة..

ثار عمر وأخذ يطارد حنان بأسئلته ويحاول عبثا أن يثنيها عن علاقتها بشريف دون جدوى..

كانت تتهرب منه ومن ملاحقته لها ومن إحساسه بأنه يملكها لما كان بينهما من قصة بلا أجزاء وتنقصها الأحداث..

قرر عمر التصرف أو إن صح التعبير الانتقام..

استدعى شريف لمكتبه ذات يوم وأخذ يحدثه في أمور العمل ويشعره أنه صديقه ويرفع ما بينهما من كلفة بفجاجة واصطناع..

ـ يا عم شريف لما يبقى ليك شغل تعلالي وأنا أخلصهولك.. أنا هنا الكل في الكل، سيبك من مدام حنان دى يومها بسنة.. وبصراحة كده يا شري يا أخويا مخبيش عليك حنان تبقى صاحبتي وإنت بشغل شركتكم واخدها منى.. يعنى الست ياما جوزها يعطلها يإما شركتكم.. هاهاهاهاهاهاها

نزلت الكلمات على مسامع شريف كأنها ضربات مطرقة ثقيلة أصابته بالدوران والغثيان..

هل حنان على علاقة مع هذا الكائن اللزج؟!!!

لماذا لم تصارحه وقد سألها مئات المرات؟..

لماذا تركته لمثل هذا الوضيع يضعه في هذا الموقف الملعون؟

لماذا كذبت عليه واختارت أن تدعى المثالية رغم أنه لم يدعيها أو يعترف بوجودها يوما؟

خرج شريف لا يعرف أين يذهب وماذا يفعل..

هل يهجرها ويترك حبا بحث عنة لسنوات؟

هل يسامحها ويتجاوز عن خطئها؟

هل يسألها عن كلام عمر؟ وان فعل ماذا يفترض به ان يفعله بعدها بعد أن عرفت أنه يعرف وأنها كذبت عليه؟

عشرات الأسئلة جعلت رأسه يغلى كبركان ثائر منذ عقود..

استجمع ما بقى من قلبه وهرول إليها..

ارتمى في حضنها يبكى كالأطفال وهى تبكى معه لا تعرف لماذا البكاء..

قص عليها ما سمعه من عمر..

صفعها على وجهها ثم أخذها بين ذراعيه..

عنفها.. لامها.. رثى لها..

لماذا لم تصارحينى؟.. لماذا لم تتطهري بين ذراعي من كل شيء مضى؟

لم يتوقف عن البكاء حتى رحل..

بكت حنان.. بكت ماضيها وحاضرها ومستقبلها الذي لا تعرف هل ضاع أم يعود؟

بكت ضعفها وقلبها وحبها..

بكت كثيرا حتى عادت لحمامها تغلقه وتسقط خلف بابه تنتحب حب عمرها الذي تركها ورحل..

عادت بدموع الندم رغم أنها عادت... امرأة.

دم (للكبار)

استيقظ جمال على أصوات صراخ تأتى من الشقة المقابلة لشقته التي يسكنها وحيدا منذ ثلاث سنوات، لينتفض جسده فزعا ويخرج مهرولا ليرى ما حدث..

اجتاز جمال زحام الجيران المجتمعين في شقة شوقي جاره الذي وافته المنية منذ دقائق بعد صراعه الطويل مع فيروس (C) اللعين، ووقف متمتما بعبارات الاستغفار وهو ينظر لجسد شوقي المغطى على سريره وحوله أطفاله الصغار الذين لم يتجاوز يوسف أكبرهم السبع سنوات، وزوجته السيدة منى الشابة الجميلة في حالة يرثى لها تبكى بحرقة زوجها الشاب ومستقبل أطفالهما الأيتام..

ربت عم حسين الرجل العجوز بواب العمارة على كتف جمال وهو يواسيه:

ـ وحد الله يا أستاذ جمال كلنا لها..

ـ ونعم بالله يا عم حسين، إنا لله وإنا إليه راجعون..

ـ خش غير هدومك يا أستاذ جمال وتعالى علشان نشوف هانعمل إيه في الدفنة والجنازة، الله يرحمه مالوش حد ومقطوع من شجرة وأهل الست منى قدامهم كتير على بال ما يوصلوا من البلد..

انتبه جمال أنه مازال ببيجامة النوم وأومأ برأسه عائدا لشقته ليبدل

ملابسه..

انتهى الحانوتى من تغسيل جسد شوقي وتكفينه وجمال يقف مشدودا متوترا فهذه المرة الأولى التي يحضر فيها تجهيز أحد الموتى وصوت الست منى وبكاؤها زاده توترا وخوفا لم يخفف حدته سوى صوت الشيخ محمد رفعت المنبعث من مسجل صغير بجوار سرير المتوفى..

مال جمال هامسا في أذن عم حسين: هي إيه بقعة الدم اللى في الكفن دى يا عم حسين؟!!!.. هو مش الميت دمه بيتجلط وينشف بعد ما يموت..

ـ بعيد عنك يا أستاذ هو اللي ميت بالكبد كده والمرحوم كان متبهدل آخر بهدلة في الكام يوم اللي فاتوا وبطنه بقت متر لقدام اللهم احفظنا.. الله يرحمه زورته من يومين كان وشه بُني كأنة حتة خشب..

انتهت مراسم الدفن وعاد المشيعون ووقف جمال مع أهل منى وبعض الجيران في عزاء المرحوم حتى الساعة العاشرة ليلا وبعدها استأذن جمال ورجع لشقته منهكا من يوم ثقيل وكئيب ليلقى بجسده فوق أول كرسي، حتى أنه لم يستطع الوصول لآخر الصالة ليشعل النور، وأخذ يسترجع رغما عنة مشاهد اليوم متقطعة مبعثرة غير مرتبة، وتقفز أمام ذاكرته صور متنوعة لمنى منكوشة الشعر تبكى دموعا تنساب متعرجة بلون اسود على وجهها حتى أنه فزع من ملامحها غير المفهومة والغريبة التي جعلت جسده ينتفض وتنتابه قشعريرة امتدت لأطرافه..

حاول جاهدا طرد تلك الأفكار من رأسه ومد يده لجيب سترته

يخرج علبة دخانه ليشعل سيجارة بأصابع مرتعشة ولكنة أحس بشيء

غريب.. أن علبة الدخان مبتلة بمادة لزجة غريبة لم يستطع رؤيتها في الظلام فتركها على المنضدة واتجه ليشعل النور، ليتفاجأ بيده متلطخة بالدم، وينساب من جيبه الأيمن خط احمر داكن يغرق سترته وبنطاله.. وهو ما جعله ينتفض وتتحول أنفاسه لشهيق متواصل دون زفير قبل أن يسقط مغشيا عليه.

***

تجمدت قدم جمال وأصبحت ثقيلة ويجرها جرا يحاول أن يهرب من (منى) منكوشة الرأس بدموعها السوداء وعينين دامية اللون دون جدوى، حتى ثقل كل جسده وسقط أرضا يحاول مواصلة الزحف بجسده وهى تقترب منه، حتى لاحظ للمرة الأولى أنها بلا ملابس على الإطلاق ولكن يكسو كل جسدها شعر أسود كثيف، وامتدت يدها نحوه وهو يتراجع برأسه للخلف في هلع يحاول الصراخ لكنة يفشل..

ـ أستاذ جمال.... أستاذ جمال.... يا أستاذ.. فوق يا أستاذ مالك يا ساتر يا رب..

انسابت كلمات عم حسين البواب متقطعة لأذن جمال وهو يفيق كأنه يعود من الموت وبعد أن استجمع كل قواه ورفع جفونه وجده عم حسين ينظر إليه في دهشة ويهز كتفه بيده: مالك يا بنى حصل إيه خضتنى عليك؟

ـ إيه.. إيه يا عم حسين إيه اللى حصل؟

ـ الدم.. الدم.. جسمي بيجيب دم..

ـ دم إيه يا أستاذ؟!!! إنت وقعت ولا إيه..

ـ الدم... الدم يا عم حسين في جيبى..

ـ دم إيه يا بنى مفيش دم..؟

رفع جمال جسده وهو ينظر لملابسه وكأنة يبحث عن شيء ما ولكنه لم يجد شيئا وأخذ ينظر ليده ويقلب في سترته ولم يجد شيئا.. لم يجد شيئا على الإطلاق..

ـ دم إيه يا أستاذ ما تفهمنى إيه اللى حصل، إنت اتخبطت في حاجة؟

ـ لا... آه... مش فاكر، أنا جسمي كان بيجيب دم.. وبعدين إنت دخلت هنا ازاى؟..

ـ يا بني أنا خرجت وراك من العزا لقيت باب الشقة مفتوح ناديت عليك أشوفك عايز حاجة قبل ما أنزل ماردتش، دخلت لقيتك مرمى هنا على الأرض مغمى عليك..

نهض جمال واقفا وأمسك علبة السجائر وأخذ يقلب فيها ولم يجد عليها آثار لأي شيء غريب..

ـ طيب ياعم حسين كتر خيرك أنا الظاهر تعبت من الوقفة طول اليوم ده حتى أنا ما أكلتش حاجة من الصبح وشربت سجاير كتير، انزل إنت وأنا هاكل واخد دوش وأنام..

ـ طيب يا أستاذ ألف سلامة عليك ولو احتجت حاجة انده عليا وأنا أجيلك في ثواني..

ودع جمال عم حسين وتناول قطعة بيتزا قديمة وجدها فوق سفرته من الأمس وبدل ملابسه التي تفوح منها رائحة العرق ودخل غرفة نومه يحاول أن ينام وعقله شارد في ما حدث، هل كان يحلم؟ وإذا كان حلما هل كان الحلم قبل أن يغشى عليه أم بعده؟

وصورة منى كما رآها في الحلم تملأ عينه حتى أنه وجد صعوبة في تذكر ملامحها الحقيقية، لكنه يشعر أن ما حدث كان حقيقيا.. إنه يتذكر ملمس الدم على يده ولونه الداكن جداً و...

قطع جمال حبل أفكاره وانتفض جسده بقوة هو يتذكر فجأة شيئاً هاماً جداً..

عندما أفاق لم تكن علبة السجائر فوق المنضدة أو داخل سترته كما يجب أن تكون.. إنها... إنها... كانت هناك على الأرض بجوار الحائط عندما أراد أن يشعل النور..

ما هذا؟!!

كيف جاءت إلى هنا لقد تركها فوق المنضدة، هكذا حدث جمال نفسه قبل ينتفض مجددا بعد أن دوت في غرفته صرخة شديدة.. صرخة بصوت.. منى..

***

استجمع جمال ما تبقى من قواه وهو يحاول أن يجمع شتات نفسه بعد أن أصابه الهلع بعد سماعه صرخة منى القوية الحادة التي مازال صداها يسكن أذنيه وهو يحرك أطرافه الثقيلة ذاهبا لشقة منى ليرى ما حدث جعلها تصرخ هكذا..

رغم السكون الشديد في كل جنبات العمارة فقد تجاوزت الساعة منتصف الليل طرق جمال باب شقة منى بيد مرتعشة عدة مرات قبل أن يفتح له الباب الأستاذ عزت والدها وهو ينظر لوجه جمال الشاحب الأصفر اللون:

ـ خير يا بني في حاجة يا أستاذ جمال؟!

ـ ها؟!! لا أبداً أنا سمعت الست أم يوسف بتصرخ وجيت أطمن ليكون حصل حاجة..

ـ بتصرخ؟!! محدش يا بنى صرخ وأم يوسف نايمة أديلها ساعة بعد ما الدكتور محمد ابن خالتها إداها حقنة مهدئة..

ـ إزاي يا حاج أنا لسه سامعها بتصرخ من دقايق وجيت جرى على صوتها..

ـ يا بنى بقولك نايمة وعموما أنا صاحى كنت بقرا قران ومسمعتش حاجة أبدا، تلاقيك بس اتهيألك..

ازدادت حدة التوتر عند جمال وانصرف بعصبية وهو يعتذر لوالد منى عائدا لشقته وهو غير قادر على فهم شيء فقد سمع صراخ منى بكل وضوح وقد كانت منى بالفعل.. إنه يستطيع تمييز صوتها بلا شك..

أغلق جمال باب شقته خلفه وهو يتناول آخر سيجارة في علبته ويلقى بها بعيدا بعد أن سحقها بيده رغبة منه في قتلها فهي سبب بداية كل الأحداث الغريبة في هذه الليلة قبل أن ينقطع التيار الكهربائي فجأة ويعم الظلام المكان..

الله يلعن أبو أم دى بلد..

تمتم جمال بتلك العبارة وهو يشعل ولاعته التي مازالت في يده وقد يكون وجودها في يده في هذه اللحظة من أسعد الأشياء حدوثا في هذا اليوم المخيف..

تقدم جمال نحو مطبخه وأخرج شمعة كبيرة وعاد لغرفته على ضوئها وثبتها بجواره على الكومودينو، وهو يتمدد على سريره يحاول أن يجد تفسيرا لسماعه صراخ منى، ولا يزيده التفكير سوى حيرة وخوف قبل أن يقطع حبل أفكاره صوت صرير باب المطبخ الصدئ الذي جعله ينتبه بقوة يحاول أن تخترق عينة الظلام خارج غرفته دون أن يرى شيئا، وقبل أن تهدئ أنفاسه سمع وقع أقدام تقترب من غرفته، تقترب ببطء شديد وثقيل..

تجمدت الدماء في عروقه وأحس أن شعر رأسه يجذبه أحدهم يحاول اقتلاعه وحاول أن يقف أو حتى أن يقول: من؟... من بالخارج؟ لكنة فقد القدرة على التحكم في لسانه أو أطرافه أو حتى أن يبتلع ريقه..

اقترب صوت الخطوات واقترب واقترب وفجأة ظهر أمامه جسد صاحب الخطوات الذي حاول أن يميزه في الظلام..

انه... انه.....

إنها منى..

منى تقترب منه وهى تضحك والدموع السوداء تتساقط في خيوط تدخل فمها المفتوح، والشعر يكسو جسدها في كل مكان وانطلقت الصرخة مجددا أكثر قوة وألما..

لكن من فم جمال هذه المرة..

***

قفز الرائد إيهاب درجات الأدوار الأربعة في خطوات واسعة قبل أن يصل إلى شقة القتيل فقد تلقى الإشارة لتوه بعد أن وصل بيته بدقائق ليعود مرة أخرى قبل أن يستطيع إتمام شجاره مع زوجته العروس الجديدة واكتفى بسماع تعليقها المتكرر منذ أيام : ماشي يا إيهاب أنا غلطانة أنى اتجوزتك.. إنت اللى زيك مكانلوش جواز أصلا، أصلك فاكرها لوكاندة..

دخل إيهاب مباشرة لغرفة نوم القتيل ومسح بنظره الغرفة سريعا، غرفة بسيطة يظهر من كم الفوضى بها أنها لعازب مهمل تمتلئ الأرضية بالملابس والأحذية وأعقاب السجائر وبمنتصفها جثة القتيل شاب في الثلاثين جسده غارق في الدماء حتى أنها سالت على الأرض ووجهه أصفر جدا يشبه شوربة العدس وفمه مفتوح لآخره..

نظر إيهاب لعم حسين البواب الواقف في حزن ثم سأل الأمين حسان الواقف بجواره:

ـ خير يا حضرة الأمين؟ حصل إيه؟

ـ البواب ده يا فندم اتصل بينا وقال إنه سمع الأستاذ جمال القتيل وهو بيصرخ ولما طلع وخبط ع الشقة ومفتحش اتصل بينا ولما كسرنا الباب لقيناه زى ما قدامك كده يا باشا..

أشعل الرائد إيهاب سيجارته وهو يشير لهم بالخروج خارج غرفة القتيل ويعاود سؤال الأمين حسان:

ـ في حاجة مكسورة في الشقة أو آثار سرقة..

ـ خالص يا فندم والدولاب فيه فلوس كتير وباينة زى الشمس ومحدش جة ناحيتها..

جلس إيهاب على مقعد في صالة الشقة وهو يوجه كلامه لحسين البواب:

ـ ها يا حاج اسمك ايه؟

ـ خدامك حسين عبد الرحيم يا سعادة الباشا..

ـ طيب يا عم حسين احكيلى بالظبط اللى حصل..

ـ أبدا يا سعادة الباشا أنا يدوبك سيبت الأستاذ جمال الله يرحمه بعد ما أغمى عليه ونزلت اتعشيت ونمت وصحيت مفزوع على صوت صريخه بعد ما الكهربا قطعت ييجي بعشر دقايق وفضلت أرزع على الباب والجيران كلهم صحيوا على التخبيط إلا هو، أتاريه سايح في دمه يا ولداه..

ـ وهو اغم عليه امتى ولية يا عم حسين؟

ـ هى باين شوطة في العمارة ولعياذ بالله.. إمبارح الأستاذ شوقي اللي في الشقة اللي قصادنا اتوفى وبعد الدفنة والعزا بالليل وأنا نازل لقيت الأستاذ جمال مرمى على الأرض مغمى عليه ولما فاق قالى كلام غريب كده زى ما يكون حاسس بقرب أجله وسيبته بعد ما اطمنت عليه ونزلت وبعدها حصل اللى حكيتهولك يا باشا..

ـ كلام غريب ازاى يعنى؟!!!

ـ كلام غريب كدة خطرفة يعنى.

ـ أيوة فاهم إنها خطرفة، قولى قالك إيه بالظبط؟

ـ قالى إنه لقى جيبه متعاص دم.

ـ مممممممم، بس كده؟ ده كل اللي قاله؟

ـ آه يا سعادة الباشا..

نهض الرائد إيهاب وهو يوجه كلامه للامين حسان:

ـ هات الراجل ده وحد تانى من سكان العمارة وحصلنى على القسم يا حسان وقول للدكتور يبعتلنا التقرير المبدئي بسرعة ويحاول يحدد لنا فيه القتل تم بإيه..

استمع الرائد إيهاب لشهادة عدد من الجيران من ضمنهم الأستاذ عزت والد منى وآخرين ولم يخرج بمعلومات جديدة على الإطلاق قبل ان يدخل عليه الامين حسان ويبدو على وجهة علامات الاندهاش الشديد:

ـ خير يا حسان مالك؟

حاجة غريبة يا فندم، تقرير الطبيب الشرعي وصل دلوقتى..

ـ ماله التقرير يا حسان ورينى..

عقدت المفاجأة لسان الرائد إيهاب ليصاب بعدوى الاندهاش هو الآخر..

الوفاة نتيجة هبوط حاد في الدورة الدموية..

والأغرب.... الدم الموجود ليس للمتوفى!!

***

ـ حسين.. حسين.. يا حاج حسين..

ـ أيوه... مين بينادى؟

خرج عم حسين البواب وهو يكمل ارتداء جلبابه أمام باب غرفته الصغيرة في مدخل العمارة..

ـ اؤمر يا أستاذ عزت، أي خدمة..

ـ صباح الخير يا حسين، أنا مسافر راجع البلد ابقى خلى عينك على الأولاد وشوف طلبات منى بنتي وأنا إن شاء الله كل كام يوم كدة هاجى أشقر عليها..

ـ بتوصينى على إيه يا أستاذ عزت دول في عينيا الاتنين، الله يرحمك يا أستاذ شوقي كان راجل محترم..

ـ ألف رحمة ونور، مفيش أخبار صحيح بخصوص الحادثة؟

ـ المحضر اتقفل وحفظوا البلاغ بتاعى وقالوا إن المرحوم جاله سكتة قلبية ومحدش عارف الدم اللي كان مغرقه جه منين، ناس بتقول هو اللي دلقه على نفسه وكان بيحضر جن اللهم احفظنا، وناس تانية

بتقول إن طلع له عفريت وان الشقة مسكونة بالشياطين والعياذ بالله..

ـ لا اله إلا الله، وده اسمه كلام ده، عفاريت إيه ومسكونة إيه؟ ما اهو فات على الحادثة أزيد من أسبوعين لحد دلوقتى وأنا ما سيبتش البيت دقيقة واحدة وماشفتش أي حاجة غريبة، بطلوا تخاريف وإشاعات ماتخلوش الناس تطفش من العمارة..

ـ دة كلام الناس يا أستاذنا مش كلامي، عموما صاحب العمارة كلمني إمبارح وقالى إن في ناس جايين يشوفوا الشقة علشان يأجروها، وأنا من أربع أيام طلعت نضفتها ومسحتها كلها وشغلت فيها قرآن بعد ما أهل القتيل ما شالوا عزاله ومشيوا..

ـ يا راجل إنت أنا مش قلتلك بطل كلمة قتيل دي، إنت مش لسه قايل بعضمة لسانك مات بسكتة؟!

ـ أيوة أيوة صح عندك حق يا أستاذ

ـ طيب ما هاوصيك تانى يا حسين ونمرة تليفونى معاك اتصل في أي وقت لو حصل حاجة..

ـ اتكل على الله يا أستاذ وما تقلقش الجماعة في عيني من جوه..

***

اقتربت الساعة من الخامسة مساء وسمع عم حسين صوت طرقات على باب غرفته جعلته ينهى طعامه ويخرج يرى من بالخارج..

ـ مساء الخير، مش عم حسين برضه؟

ـ أيوة يا بنى أني حسين، تحت أمرك..

ابتسم أيمن الساكن الجديد وهو يقدم صديقة أسامة لعم حسين البواب:

ـ أسامة صاحبي وأنا أيمن درويش وجايين بخصوص الشقة الفاضية..

ـ أيوة يا أستاذ الحاج اتصل بيا وبلغني انك جاي تتفرج عليها النهارده، ده أنا نضفتها وهويتها ومستنيك من بدرى..

ـ شكرا يا عم حسين، بس أنا مش جاى أتفرج أنا خلاص مضيت عقد الإيجار وجاى دلوقتى أستلمها والعفش جاي خلال ساعة بالكتير..

ـ هه، وماله يا أستاذ تحت أمرك ده إحنا اتشرفنا..

وانطلق أمامهما إلى شقة الأستاذ جمال القتيـ.. المرحوم.

***

انتهي أيمن وأسامة من ترتيب قطع الأثاث في شقتهما الجديدة بمساعدة عم حسين البواب الذي لم يترك تفصيلة تخص حادث وفاة (جمال) الساكن السابق دون سردها مع إضافة لمساته السحرية لتبدو أكثر غموضا وفزعاً حتى انتهي بتحليله النهائي لرجل له خبرته في فن التأليف البوهيمي أن الشقة تسكنها العفاريت (اللهم ما احفظنا)..

انتهت لفات الملعقة الثمانون قبل أن يقرع بها أسامة مرتين متتاليتين ويقدم كوب الشاي الكشري الساخن لصديقه وشريك السكن ايمن: اشرب يا نجم وادعيلي قبل ما نتلبس ونتجنن..

ـ إنت اهبل يالا؟!!! عفاريت إيه وزفت إيه يا بن العبيطة.. انت هاتشتغلني يا حيلتها؟

ـ ما الراجل ال (fake) ده قال قدامك القصة كلها، ده بيقولك لقو الراجل غرقان دم وطلع مش بتاعة أصلا وقفلوا المحضر ومعرفوش برضة دم مين..

اعتدل أيمن وهو يحرك لسانه في خط مستقيم يميناً ويساراً قبل أن يحكم غلق سيجارة الحشيش ويضعها في فمه ويسحب نفساً عميقاً: بص يا برنس البرنسات.. كل ده شغل دجل وخرافات ومش بعيد يكون ولا حاجة من ده كله أصلا حصلت وكله هري وهجص وخلاص..

التقط أسامة السيجارة من أصابع أيمن وأخذ نفساً عميقا وصل لقرب مثانته بعد كتمه:

ـ قشطة يا صاحبي واهو يمكن العفريت يطلع نتاية ونقلبها مليطة.. نياهاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها

ـ طب يا عم الحرمجي قوم بينا نتخمد عندنا شغل الصبح بدري..

ـ طب ما تلفلنا سيجارة كمان؟

ـ لا سيجارة ولا زفت هادخل الحمام وأنام أنا خلاص جسمي مدغدغ مش قادر افتح عيني..

انتهي الصديقان من ارتداء ملابسهما وخرجا من الشقة الجديدة متجهين لعملهما وعند الباب قابلا جارتهما الحسناء (الست مني) مع طفليها يوسف وجانا وهما بملابس الدراسة..

ـ صباح الخير .. إزيكو يا قمامير .. أنا أيمن وده صاحبي أسامة جيرانكم الجداد..

ـ صباح النور العمارة نورت.. بعد إذنكم عشان باص المدرسة مستنينا..

ربت أسامة علي شعر يوسف وهو يودعهما بابتسامة واسعة بلهاء:

مع السلامة يا كتاكيت... باي باي

ـ هيييييييح.. دي صاروخ يا معلم شكلها فاتحة خير إن شاء الله..

ـ هههههههه وانت لحقت تخلّص مع العفريتة لما هاتبص للجيران..

ـ الله يحرقك، فصلتني ليه بس؟

ـ طب يلا يا عم الأمور ومتنساش تعدي علي (مسعد اوكتافيا) قبل ما ترجع وهاتلنا حتة طرية حلوة واوعي يضحك عليك زي المرة اللي فاتت..

ـ حشيش إمبارح نصه برشام يا مفتح..

ـ عيب عليك هاجيبلك النهاردة حتة عسلية..

ـ طب ما تتأخرش أنا مش معايا مفتاح لحد ما نطلع علي النسخة اللي معاك

ـ نسخة ايه؟!!! أنا مش معايا حاجة..

ـ مفتاح الشقة يا بن المساطيل اللي اديتهولك إمبارح بالليل قبل ما أنام..

ـ بالليل؟!! إنت ماديتنيش حاجة، أنا دخلت أوضتي نمت وسيبتك وإنت داخل الحمام..

ـ انت ياض مش قابلتني وأنا خارج من الحمام وخدت مني المفتاح؟!!

ـ علي الطلاق ما خرجت ولا دخلت الحمام إمبارح..

ـ أسامة بطل تهريج مش طالبة وحياة أهلك ع الصبح..

ـ قسماً بالله العظيم ما حصل ولا بشتغلك..

نعم!! أومال مين اللي خد مني المفتاح؟؟؟

***

التقي أيمن بالطفلين يوسف وجانا عند مدخل العمارة بعد عودته من عمله وقد تعرفا عليه وبادلاه الابتسامة،

ـ إزيك يا يوسف، إزيك يا جانا..

ـ أهلا بيك يا عمو..

إحنا سمعناك وانت بتزعق لعمو التاني الصبح علشان ضيع مفتاح الشقة..

ـ هههههههه معليش بقي أصل عمو أسامة ده دايما بيعملنا مشاكل ويتعبنا..

مسك أيمن بيد جانا وهو يصطحبها هي ويوسف صاعدين لشقتهم حتى التقي بوالدتهما أمام باب شقتهم..

كانت الفرصة أطول بالنسبة لأيمن لتمسح عينه ملامح وتفاصيل مني بهدوء هذا الجمال الهادئ الذي من فرط هدوئه تشعره صاخبا حاداً وهو يسري في روحك يتملكها دون استئذان، عينان سوداوان فوق أنف دقيق يرتكز على شفاه حمراء متوردة تشعرها شفاه طفل من شدة رقتها، بشرتها بيضاء تكسوها لمعة غريبة تشعر معها أنها مصنوعة من زجاج عالي الجودة يعكس علي سطحه الناعم أبسط أشعة النور، لم تكن منى قصيرة أو طويلة إنها من هذا النوع الذي تتمني احتضانه والرقص معه برومانسية طوال الليل..

رغم سنوات أيمن الخمس والثلاثين فإنه لم يكمل أبدا قصة لتجعله زوجاً حتى الآن، ولم يكن من هذا النوع الصبياني الذي يدخل في علاقات بسهولة أو يدق قلبه سريعاً، ومع ذلك لم يعرف سر هذا الشعور الذي حاول طرده من رأسه صباحاً عند رؤيته لمني للمرة الأولى والآن يتخلله نفس الشعور أكثر قوة ووضوحاً، يشعر أنه قابلها من قبل.. يعرفها من زمن بعيد.. هذه الملامح تسكن عقله منذ عصور، هذا الصوت العذب سمعه مسبقاً آلاف المرات في أحلامه ويقظته لحنا يطرب قلبه ويجعله مايسترو أعظم السيمفونيات..

وقف أيمن مشدوهاً مضطرباً أمام منى يبحث عن كلمات ولا يجد ليبدو كمن سقط لتوه من قمة جبال الألب..

ـ اوعي حد فيكو يكون ضايق عمو..

ـ احنا قابلنا عمو قدام العمارة يا ماما وطلع معانا..

ـ ربنا يخلي يا فندم دول ملايكة والله..

ـ شكراً يا أستاذ..

ـ أيمن... أيمن توفيق مهندس وجاركم الجديد..

ـ تشرفنا يا أستاذ أيمن، مدام مني وده يوسف في أولى ابتدائي وجانا في KG١

ـ ربنا يبارك ويخلي.. إحنا بقينا أصحاب خلاص.. ولما بابا ييجي نبقي نتعرف عليه أنا وأسامة زميلي في الشقة..

لم يتمالك يوسف الصغير نفسه وانفجر في البكاء بعد سماع أقسى كلمة في قاموسه منذ ما يزيد عن أسبوعين

ـ بابا مات وطلع فوق عند ربنا..

تلعثم أيمن محرجا وحزيناً ومتعاطفاً مع الأطفال وهو ينحني يضم يوسف بين ذراعيه وهو يربت علي رأسه

ـ أنا... أنا آسف يا يوسف ربنا يرحمه يا حبيبي ويخليك لمامتك وأختك.. ها في راجل بيعيط؟.... أنا كمان زيك بابا طلع عند ربنا، عاوزين نثبتلهم بقي إننا رجالة علشان يفرحوا بينا، هما هايفرحوا لما يعرفو إننا كويسين وشاطرين وبناخد بالنا من ماما واخواتنا..

هدأ يوسف قليلا لكلمات أيمن وهو يمد يده الصغيرة يمسح دموعه..

اعتدل أيمن وهو يعتذر لمني لتحول الموقف بهذا الشكل..

ـ أنا متأسف جدا يا مدام مني، أنا مكنتش أعرف والله..

ـ حصل خير، الموضوع حصل من فترة بسيطة تقريباً أسبوعين

والأولاد لسه ماتعودوش..

ـ البقاء لله وبجد أنا متأسف جدا جدا وانت يا عم يوسف إحنا بقينا خلاص أصحاب لما تحتاج أي حاجة قولي علي طول..

أومأ يوسف برأسه وهو يحاول الابتسام قبل أن يعلو صوت مني فجأة وهو تصيح في أطفالها بشكل غريب:

ـ يلا يا يوسف... يلا يا جانا.. بعد إذنك يا أستاذ..

وجذبت طفليها داخل شقتها قبل أن تصفق الباب بقوة مفرطة في وجه أيمن الذي وقف مذهولا لا يعرف ماذا حدث بالظبط؟!

***

انتهي أسامة من رفع بقايا وجبة الغذاء الدليفري وهو يواصل حديثه مع أيمن رغم وجود الطعام في فمة كعادته:

ـ يعني برضه إيه اللي خلاها تعمل كده؟ أكيد إنت قلتلها حاجة غلط..

ـ يا بني والله ما فتحت بقي، ده أنا كنت بكلم الواد الصغير أصلا وفجأة لقيتها برقت وحسيت شكلها اتغير لدرجة إني فعلا اتخضيت وراحت شادة العيال ورازعة الباب في وشي..

ـ يمكن تكون دورتها في دماغها ولقت الموقف مش تمام وخافت حد يشوفك وإنت واقف معاها قدام شقتها، متنساش صاحب البيت لفت نظرنا إن الجيران مضايقين من سكن عزاب في العمارة والشقة دي الوحيدة اللي فيها عزاب، ودي ست حلوة وأرملة والحكاية مرسومة

قوي تتقري شمال..

ـ يا بني هو أنا كلمتها أصلا؟! أنا أول ما وصلنا عند شقتها أنا وولادها حسيت إني اتخطفت فجأة وبقيت مش حاسس بنفسي..

ـ هههههه..... كمل يا عب باسط.. ونزلت دمعتيييييييي..

ـ مش وقت استظراف أهلك أنا مش ناقصك..

ـ بص يا برنس الجيل.. قفشت اني خدت منك مفتاح الشقة وفرجت عليا العمارة وقلت يمكن عندك حق، إحنا شربنا كتير وجايز اتسطلت وحصل، انما حكايتك إنت والست اليسا جارتنا دي بقي مش هاعديهالك، إنت بتعمل الفيلم ده علي أمي علشان توزعني ويخلالك الجو وتلاغيها لوحدك..

ـ يا اخي كتك القرف، واحدة جوزها ميت مبقالوش أسبوعين وعيالها يصعبوا علي الكافر وانت مفيش في دماغك غير الوساخة؟

ـ ماشي يا عم النظيف... ماشي يا رجولة.. عاوز إيه من أهلي بقي دلوقتي؟؟

ـ مش عايز يا متخلف، أنا بحكيلك..

ـ خلاص كبر مخك بقي وسيبك منها، ملناش دعوة بيها، إحنا ماصدقنا نلاقي شقة قريبة من أشغالنا وبالسعر ده، ده إحنا كنا ساكنين زريبة قبلها وإيجارها أغلى بميتين جنيه..

ـ أسامة.... أنا حاسس إني عارف مني دي من زمان ومش قادر أخرجها من دماغي..

ـ يا ديك اااااامي، اشجيني يا تامر يا حسني..

ـ قوم غور ياض يا بن البايخه، أنا غلطان إني بتكلم مع حلوف زيك..

***

اقتربت الساعة من الثانية صباحاً عندما اقترب أسامة من سرير أيمن يوقظه:

ـ أيمن.. أيمن.. أيمن..

ـ اااايه؟.... عاوز إيه يا زفت؟

ـ اصحي يا بن العبيطة تعالي شوف ست زبيدة ثروت بتاعتك..

انتفض أيمن من نومه وهو يقف يحملق في وجه أسامة يحاول أن يستوعب ما سمع:

ـ مين؟؟؟؟ في إيه يلا؟!!!

ـ مني.... مني واقفة ع الباب بره بتسأل عليك..

التقط أيمن يمسك تليفونه ينظر فية باستغراب

ـ دي الساعة ٢.... أكيد الولاد حد حصله حاجة..

ارتدي أيمن ملابسة علي عجل وخرج مسرعا ليجد مني تقف أمامه تعلو وجهها ابتسامة عريضة لا تتناسب مطلقاً مع توقعاته في حدوث مكروه لأولادها..

ـ خير يا مدام مني؟ حد من الولاد حصله حاجة؟

ـ لا خالص، الولاد بخير ونايمين.. أنا جيت أعتذرلك عن اللي حصل الصبح..

ـ تعتذريلي؟!! الساعة ٢ بالليل؟!!

ـ الوقت متأخر، بس أنا مقدرتش أنام من غير ما اعتذرلك..

ثم انصرفت شبه تعدو وهي تعود لشقتها وتترك أيمن في حالة ذهول شديد لم يقطعه سوي صوت أسامة من خلفه..

ـ إيه يا أيمن؟ كان عاوز إيه الراجل الثئيل ده؟

راجل مين؟؟

ـ عم زفت البواب كان عاوز ايه؟

ـ بواب إيه؟!!!

ـ بواب إيه!!! أنا يا بني مش صحيتك تكلمه وسايبك واقف معاه قبل ما ادخل الحمام؟

ـ بواب مين اللي بكلمه؟ أنا كنت بكلم مني..

ـ مني؟!! مني مين؟؟

ـ انت مش جيت صحتني وقلتلي أخرج ـكلم مني؟

ـ أيمن... إنت بتكلم جد ولا بتهرج؟

ـ انت اللي بتهرج مني جت علشان تعتذرلي وسابتني وخرجت تجري..

ـ لا بقي إنت اتجننت رسمي.. أنا جيت صحيتك وقلتلك كلم حسين البواب وبالأمارة قلتلك اديله ال ٥٠٠ جنيه بتوع الشهر المقدم والفلوس اهيه... إنت لسه ماسكها في إيدك..

انتفض أيمن مذعوراً وهو يلقي بالنقود الذي رآها وشعر بها لأول مرة عندما أشار أسامة إليها وهو يرجع للخلف غير مصدق ولا يقدر علي تفسير ما حدث.

***

وقع أيمن علي الأرض وهو يحاول أن يمسك بحقيبة أسامة يجذبها منه بعد أن أفلتت من يده،

ـ مش قاعد.... مش هافضل في أم الشقة دي ثانية واحدة بعد كده... خلاص الموضوع انتهى..

ـ أسامة.. صاحبي... علشان خاطري..

ـ مستحيل.. مستحيل.. مستحيل..

ـ فوق يا عم الحاج العمر مش بعزقه، مستني إيه؟ واحد يموت فينا ولا نتلبس ونمشي نشد في شعرنا ونقول كتاكيت؟

ـ أسامة علشان خاطري ما تسيبنيش هنا لوحدي، خليك معايا ده إحنا صحاب العمر..

ـ قتيل ومحدش عارف مين قتله ولا مات ازاي.. ست غريبة وملامحها مريبة وعينيها عاملة زي عيون القطط كل ما تشوفها تحس إن لونها بيتغير.. واحد أهطل بيحب واحدة أغرب من الخيال وهو مشافهاش غير من يومين.. حاجات بتحصل ومحدش بيشوفها غيرك.. أسيبك واقف مع البواب ارجع الاقيك بتقول عليه مني!!! بقي ده ينفع مني ولا شكل منى؟ ولا بقيت تهيج علي البواب المعفن يا شاذ يا بن الجزمة، لكن نرجع أوضتك نلاقي سريرك مليان (دم) ونخرج نجيب حاجة ننضفه نرجع ما نلاقيهوش!!! لاااااا علي الطلاق بالتسعمية ما أنا قاعد فيها.. إإإإيه يا عم مستني إإإإيه؟ يطلع لنا تنين وجودزيلا علشان تصدق إن دي شقة ملبوسة بنت ميتين كلب، خليك فيها بقي لوحدك أنا مش قاعد..

لم تكن الساعة تجاوزت الخامسة صباحا حتى باءت كل محاولات أيمن بالفشل في جعل أسامة يتراجع عن قرار رحيله.. استند أيمن علي الحائط خلف باب الشقة وجلس أرضا يضم قدميه لصدره ويدفس رأسه فيهما متقوقعاً علي نفسه يحاول أن يفسر ما يحدث له دون أن يصل لشيء، فقط يشعر أن شيئا ينمو بداخله، وكأن قوة كبيرة تسيطر عليه تدفعه دفعاً تجاه ما ترغب وتحجب عن عينة الرؤية.. ماذا حدث له ما الذي يربطه بمني؟!!

هل يحبها؟؟ هل يحب امرأة رآها لأول مرة بالأمس لدقيقة صباحاً ثم تبادل معها بضع كلمات بسيطة في منتصف اليوم وانتهي اللقاء بإحراجه وصده.. كيف يصبح أسيرا وبطلاً لقصة بدأت فقط من أمس؟!!

امتدت يده تجذب شعر رأسه من الخلف بقوة وهو يسأل نفسه: لماذا لم يرحل مع أسامة لماذا لم يعد يتحكم في نفسه؟؟

عشرات الأسئلة وعلامات التعجب ولم يجد لها رداً أو تفسيراً، حتى حسم أمره وانطلق كمن لدغه عقرب يطرق بابها... باب مني.

***

ما إن وصل أيمنٍ لشقة مني وقبل أن تمتد يده ليقرع بابها، إذ به يتراجع ويتذكر شيئاً هاما جعله يتجمد مكانه ثواني قبل أن يعود مسرعاً لشقته ويدخل مباشرة لغرفته يفتش في فراشة ويقلبه رأساً علي عقب وهو يحدث نفسه،

إذا كان هناك (دم) علي فراشه وقد رآه بعينه هو وأسامة فلابد أنه مازال موجوداً أو بقي علي الأقل أثره، قد تكون الوسادة تشربته وقد يكون فعلها الغطاء أو عله يجد بقايا نقاط الدم هنا أو هناك أو حتى أسفل فراشه،

إنه يبحث عن أي شيء، عن خيط يهديه لطريق الفهم لكنه لم يجد سوى الفراغ ومزيد من الغموض والحيرة،

جلس أيمن عابساً متكئا علي طرف فراشه ينظر في مرآته الكبيرة يشاهد نفسه، شكه.. قلقه.. حيرته.. وأيضا خوفه وضعفه من الخروج من كل هذا مثلما فعل أسامة..

دقيقة مرت؟.... دقيقتان؟

لا يهم كم مر من وقت علي أيمن في هذا الوضع قبل أن يلمحها

تتحرك أمامه..

نعم إنها تحركت أمامه الآن.. لا لم تكن أمامه..

لقد كانت هناك في الخلف في نهاية غرفته، رآها بمنتهي الوضوح في المرآة حتى أنه قفز بقوة وهو يلهث بشدة ينظر في نفس النقطة لكنه لم يجد مني لم يجد شيئا علي الإطلاق..

أخذ أيمن يتلفت أمامه وخلفه في المرآة وفي فراغ الغرفة يبحث عنها رغم أنه لا يريد حدوث ذلك حقاً، لا يريد أن يصدق ما رآه بعينه، 'نه فقط كان يتوهم... نعم كان يتوهم..

ـ أيمن...أيمن...

التصق أيمن بالحائط خلفه بعد سماع صوت مني الذي أتى من خلفه مباشرة وأنفاسه تتعارك في صدره تنتظر دورها في زفيره تريد الهروب بعيداً عنه..

ـ مني... إنتي هنا بجد؟ أنا مكانش بيتهيألي؟

ـ آه يا أيمن أنا هنا... أنا دايماً هنا..

ـ طب ازاي؟ دخلتي هنا ازاي؟

ـ انا ما خرجتش يا أيمن علشان ادخل.. إحنا طول الوقت كنا سوا، كنت باخدك في حضني وانت نايم وأفضل ألعب في شعرك وابص عليك وانت نايم زي الطفل الصغير..

ـ انتي بتقولي ايه؟!! هنا ازاي، ويعني إيه تنامي جنبي؟؟ احنا اتقابلنا

إمبارح بس..

اقتربت منى نحوه بخطوات لم يسمع لها صوتا حتى لمست أناملها خده فجعلته يشعر بالخدر يسري في كل شرايينه.. يسمع موسيقي لم تسمعها أذناه من قبل.. تنساب إلى روحه ويشتم رائحة قوية لا تكتفي بالوصول لصدره بل إنها تتحرك في كل عروقه وكأن حاسة الشم مملوكة لكل أعضائه وأطرافه..

ارتخي جسد أيمن ورغماً عنه بدأ في وداع الحائط وهو يسقط لأسفل في نعومة وهدوء حتى إن تبدل وجه منى أكثر من مرة لم يعد يفزعه أو يجعله حتى يندهش.. فقط اكتفي بالمشاهدة وكأنة أمام فيلم سينمائي من النوع ال ٣D.. وجه مني ثم وجه رجل شاحب مذعور ثم وجه رجل آخر ضعيف تملؤه الصفرة ثم وجه بلا أنف بلون أحمر دموي شديد الحمرة بأعين بلا أهداب أو جفون فقط غشاء رقيق من قطعتين علوية وسفلية يلتقيان في منتصف عينه الصفراء بسرعة شديدة مرتين كل عشر ثوان..

ـ انت مين؟

نطقها أيمن بهدوء شيخ كبير طاعن بالسن..

ـ أنا أيمن..

ـ أيمن مين؟

ـ أيمن إنت..

ـ أيمن أنا!! لا إنت مش انا... أنا معرفكش

ـ لا.. إنت تعرفني وأنا أعرفك بس إنت بطلت تتكلم معايا زي زمان، فاكر يا أيمن؟.. فاكر لما كنت بتكلمني زمان كل يوم كل ثانية كل حاجة كنت بتعملها كنا بنتفق عليها سوا.. ودايما في اي مشكلة تجيب اللوم عليا وكمان تشتمني مع انك دايماً كنت بتمشي برأيك إنت وبس..

قاوم أيمن شعوره بالنعاس الشديد وهو يبذل مجهوداً كبيراً كأنه يسبح في بحر من الطين اللزج..

ـ أنا مش فاكر أي حاجة ومش عارفك..

ـ قلتلك أنا أيمن... أنا إنت... أنا جواك.. كنا بنتكلم سوا ومحدش بيسمعنا، كل رغباتك وخطاياك محدش يعرفها غيري، كل ذنوبك عملتها معاك وكل حاجة كويسة كنت بتتخلي عني وكمان ما تكلمنيش، دايما ما بجيش في بالك غير لما تضعف.... لما تخاف... لما تعمل نجاستك.. فاكر عمتك وانت بتجسس عليها؟

فاكر أم طارق صاحبك وإنت بتبص علي صدرها وإنت عامل نفسك مؤدب وبتكسر بعينك لتحت؟

فاكر وانت بتحكي لصحابك انك ضد الغش وبتعتمد علي مجهودك في المذاكرة وكنت بتكدب وبتخبي جبنك انك تخش زيهم؟

فاكر قد إيه كان نفسك صاحبك يبقي فقير وأفقر منك وقد إيه كنت بتحقد عليه؟.... فاكر لما...

ـ بس.. بس... اخرس وبطل كدب.

ـ لا أنا مش كداب، إنت جبان ومكسوف.. بس ماتتكسفش مني ماينفعش تتكسف مني.. أنا إنت يا ايمن... أنا بحبك، وعاوز أساعدك..

ـ وانا بكرهك، ومش عايز منك حاجة..

ـ مش عايز حاجة خالص؟؟ طب ومنى؟ انت بتحبها ونفسك فيها، كنت مبحلق فيها وعينيك هاتقطع هدومها، كنت بتحاول تعريها بعينيك وأنا ساعدتك، إوعى تنكر انك تقريباً شفت جسمها... خليتك تشوف صدرها وتتمتع بيه وأنا قاعد جوه خيالك بعريها وبكشفها، فاكرني مخدش بالي وإنت بتلمس جسمها بوضع إيدك علي خد بنتها الصغيرة وبتحاول تعرف طعم شفايفها وانت بتبوس ابنها الصغير؟ أنا عارف كل بلاويك وكل وساختك ومحدش يعرفها غيري..

ـ انت عايز ايه... عايز إيه؟

ـ عايز اللي إنت كمان عايزه... عايز منى..

ـ بس أنا معرفهاش ومقولتلهاش وهي متعرفش إني حبيتها

ـ مش إنت اللي حبيتها... أنا اللي حبيتها..

ـ مش إنت قلت انك انا، يبقي قصدك ايه؟

ـ أنا حبيتها عشانك... حبيتها علشانا إحنا الاتنين..

ـ لا... أنا اللي بحبها..

ـ وبعدين يا أيمن، ما قلتلك أنا إنت.. بس أنا المرة دي اخترتلك صح، كل اللي إنت كنت بتختارهم قبل كده مش زي منى.. مني أجمل

من أجمل واحدة فيهم، دايما كنت بتحب بنص قلبك، دايما بتحب واللي تحبها تشوف عيوبها أكتر من جمالها وتعمل نفسك مثالي وبتعشقها ومش فارق معاك، وانت بتكدب وبيني وبينك كنت بتيجي وتقولي انك مش هاتكمل لحد ما تحصل حاجة وتتعلق بيها علشان تضيع منك وتعمل نفسك ضحية وزعلان.. انت كداب وجبان يا أيمن..

ـ بس أنا عمري ما بعدت عن حد، دايماً الظروف هي اللي بتفرق بنا..

ـ برضو كداب، ومش هاتعرف تكدب عليا أنا بالذات، أنا عارف كل حقيقتك..

ـ طب ومنى؟ أنا معرفش هي بتحبني ولا لاء ومعرفش هاقولها ازاي اني بحبها..

ـ ماتشغلش بالك، هي عارفة اني هاكلمك

ـ ايه؟!! عارفة ازاي؟؟ إنت بتكلمها؟

ـ مش ده المهم، مالكش دعوة، أنا بعمل كله علشانك، روحلها وكلمها.. إنت لازم تبقي معاها.. لازم تبقي جنبها.. لازم تبقي مع الأطفال الصغيرين، مشفتش يوسف اتعلق بيك ازاي؟ مشفتش جانا وهي مرتاحة لوجودك؟ روح يا أيمن، مكانك معاهم هما محتاجينلك وانت محتاجلهم..

اشتد الإعياء بأيمن وتداخلت الأشياء أمامه وأصبح كل شيء أمامه باللون الأحمر لون الدم.. وظلت الجملة ترن في أذنيه:

ـ روح يا أيمن... مني مستنياك.. روح يا أيمن... مني مستنياك..

***

وقف أيمن أمام منى صامتا شاخصاً بنظره كمن مات من ساعتين علي الأقل،لا يتحدث ولا ينظر لها، يكتفي فقط بسماع طنين كلماتها التي تأتي من بعيد من هوة سحيقة من أعماق أعماقها وكأنها تلقي بسحرها بين أحرف كلماتها لتسقط عليه كمطرقة كبيرة تقصيه بعيداً تحت باطن الأرض كلما هم بالخروج ليتنفس الأكسجين فوق سطحها،

ـ بتحبني يا ايمن؟ وعايزني؟ وعايز وجودي جنبك؟ أنا بتاعتك.... أنا علشانك.. هات ايدك... المسني.... دوب جوايا يا أيمن..

تلاقت يد أيمن بأنامل منى رغما عنه دون إرادته وأحس بتلك اللزوجة المقززة

إنه الدم.... ماذا حدث؟؟ من أين جاء.. لماذا لم يعد يفزعه رؤية الدم وهو من يكرهه ويمقته؟!!

هل جُرحت يده، أم تلك دماء مني؟؟

لم يتلقَ منها إجابة أو يجد أخرى بداخله..

تحركت يد مني بهدوء مؤلم وكأنها شوك يتحركٍ علي يده، قبل أن ترفعها نحوها وتخرج لسانها الذي بدا أطول كثيراً مما يجب، تلعق الدم من عليها بنشوة عارمة جعلت عينيها تلمعان بشدة، ولكن بحمرة شديدة مخيفة جعلت الفزع يدب فجأة في قلب أيمن بعد غياب، وهو يري وجهها يعاود التبدل كما رآها مسبقاً، رجل.. ثم رجل.. ثم وجه

مشعر مخيف ثم وجه زائره في غرفته، هذا الوجه الدموي الخالي من أنفه..

عادت لأيمن روحه لثانيتين.. بذل مجهوداً كبيراً وهو يتمسك بها ألا تغادره مجدداً وكأنة يسير عكس اتجاه شلال قوي منهمر، خارت قواه ووقع أرضا يتصبب عرقاً وهو يرتعش ويسأل وجه الزائر علي جسد منى:

ـ انت مين؟؟ عايز مني ايه؟؟

ـ ارتاح يا أيمن.... متخافش مني.. سيبني يا أيمن أحقق حلمك.. منى... منى يا أيمن بتحبك، قرب منها

تعالي.. تعالي..

ـ لاااا... ابعد عني، مش عايز..

ـ مش بمزاجك يا أيمن، مش كل مرة بمزاجك.. المرة دي لازم تسمع كلامي، اعتبرها آخر خطاياك..

ـ لا مش هاسمع كلامك... أنا بكرهك ومعرفكش.. إنت مش أنا.. مش أيمن.. إنت كداب.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ـ هاهاهاهاهاهاهاهاها.. أنا كمان بكره الشيطان يا أيمن..

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

ـ قول يا أيمن معايا.... يلا نقول سوا : أنا أيمن.... أنا إنت... قلتلك مليون مرة.. صدق يا أيمن صدق اللي جواك.. أنا مسلم زيك وكنت بقولك يلا صلي وكنت بتكسل... أنا مش شيطان يا أيمن..

ـ إنت مش أيمن.... مش أيمن..

ـ برضه هاتسمع كلامي لأنك بتحب منى..

ـ مبحبهاش.... معرفهاش أصلا..

ـ بس أنا بحبها.... ارتحت؟ أنا بحبها يا أيمن ولازم تساعدني لازم تسمع كلامي..

ـ لا... لا... لا... مش هاسمع كلامك..

اقتربت يد منى تمسك برقبة أيمن تغرز أظافرها في لحمه:

ـ يبقي هاتموت.... هاموتك يا أيمن.. هاموتك زي شوقي اللي كان بيكرهني وبيغير عليها مني، شوقي اللي كان عاوز يطردني ويبعدني عن منى، محدش منكم قدي، ومحدش هايقدر يبعدني عنها... منى بتحبني أنا..

حاول أيمن أن يدفع الجسد من فوقه وهو يزحف للخلف..

ـ يبقى إنت اللي موّت شوقي جوزها، وإنت برضه اللي موّت الراجل جارهم..

ـ أيوة أنا موّت شوقي اللي كان عاوز يحرقني ويبعد منى عني، كلت كبده، نهشت بأسناني فيه وموته، وجمال متحملش ألمسه ولما عرضت عليه يبقي جنبها متحملش الجبان، صرخ وصريخه كان بيعذبني كان لازم يموت هو كمان لأنه جبان، أجبن منك.. كلكم أجبن من بعض، وأضعف مني.. محدش فيكم يقدر يغلبني..

قالها وهو يلقي بكل جسده فوق أيمن ويتصارعان ويتقلب الجسدان يميناً ويساراً ويترك الدم آثاره فوق وجه أيمن وعلي الأرض..

***

بعد مرور عام..

ـ بابا... بابا..

ـ روحي وعقلي.. تعالي يا بسبس في حضني..

ألقت بوسي بجسدها الصغير في أحضان والدها وهي تضحك وتداعب وجهه بأناملها الرقيقة..

ـ يا أيمن... يا أيمن.. بطل لعب بقي مع بوسي وانزل اشتري الطلبات من تحت، الولاد زمانهم راجعين من المدرسة

ودع أيمن بوسي الصغيرة وودع زوجته الفاتنة مني بقبلة علي شفتيها، قبل أن تودعه هي الأخرى وهي تحمل بوسي علي كتفها.. وتمد طرف لسانها تلعق من علي شفتيها..

قطرة دم..

احتلال

اصطف الجنود بشكل منتظم في خطوط متوازية متساوية عرضية مستقبلين علي سطح خوذاتهم المعدنية خطوط الشمس المستقيمة الأفقية محدقين أبصارهم صوب قائدهم الجسور (الملك الحزين)، وهو ينظر لقرص الشمس العملاق فاتحاً عينيه عن آخرهما متحدياً قوتها وحرارة سهامها قبل أن يغمضهما علي دمعته منهزماً أمام إصرارها وقوة بأسها.

لوح القائد بيده عاليا وهو يوجه حديثه لجنوده المنصتين:

ـ جنودي الأعزاء الأقوياء اليوم نخوض معركتنا الكبرى، اليوم نسطر أسماءنا في صفحات التاريخ.. اليوم نحقق هدفنا أو نموت دونه.. اليوم نهاجم أسوار قلعة هذا القلب المشتت التائه منذ عقود، اليوم نحتل طرقاته ودروبه ونسكن في منازل عقله ونحكم دقاته ونملكها فلا تنبض بعد الآن لغيرنا، اليوم نكون أو نموت..

هذه معركتنا الأخيرة، لم يعد في العمر بقدر ما مضي، إما أن ننتصر ونحتل أرض هذا القلب، وإما فلا معني لحياة خاوية تدور حول نفسها.. هُزمنا مرات ومرات من قبل وسالت دماؤنا علي أسواره الفولاذية العنيدة لأننا لم نكن نعلم تاريخ هذه القلعة المنيعة المؤمَّنة بالحرص والكتمان والأكاذيب..

كنا نحاول الاحتلال ونجهل الأشياء التي تقتلنا بكل برود ويسر..

ها نحن نملك ماضيها وحاضرها وسنحارب من أجل مستقبلها ونملكه.. تماسكوا وقاتلوا وآمنوا أننا منتصرون..

تذكروا متعة النصر ونشوة الغد ولتكن معركة من جانب واحد نخوضها من أجلنا ومن أجل القلب الحبيب..

تعالت صيحات الجنود المتحفزين وغطت سماءهم انعكاسات أشعة الشمس علي نصل سيوفهم اللامعة وهم يتحركون بثبات وإصرار نحو هدفهم نحو أسوار قلعة قلب الحبيب..

تقدم الملك الحزين الصفوف وصوت عميق غليظ يأتي من أعماق نفسه :

ـ ماذا لو أنك لا تعرف الحقيقة حقاً كما تظن؟

ماذا لو أنك تعرف التاريخ منقوصاً أو مزيفة بعض صفحاته هل تنجح معركتك؟.. هل تحتل قلعة قلبها تمام الاحتلال؟

هل يرضيك نصر كهذا معرض بين الحين والآخر أن تثور عليه جنود القلعة وتخرجه خارج أسوارها ليعود كما كان؟

لم يبذل الملك مجهوداً في الإجابة، فقط ابتسم في هدوء..حتى وان كان؟!!

ماذا يعنيني هذا؟

وهو إن حدث لن أكون حينها الملك المهزوم يلاحقني العار وتضنيني

مرارة الهزيمة، سأكون الملك الشهيد.. القائد الراحل.. فلن أعيش إن هزمت حتى تعذبني الهزيمة..

سأموت يوم ينتهي الاحتلال.

٦ شارع بلال

خرج من عمله محملا بأطنان من الأفكار السلبية وكمية لا بأس بها من مشاعر الاكتئاب والإحباط.. لم يعد يرى في حياته جديدا أو ملمح أمل أو شبه ابتسامة في الأفق..

الكل في حالة غضب وشجار، الكل يعادي الكل والكل يهرب إلى لا شيء..

داخل عالمه الخاص المفضل أغلق باب سيارته وأدار المسجل لتنساب إلى مسامعه نغمات فيروز مختلطة بصوتها وسنوات ذكرياته التي اجتاحته..

لقد تذكر فجأة بيت جدته القديم.. هذا البيت الذي عاش فيه مرحاً ولهواً وهو صغير..

لقد مرت سنوات ولم يذهب إلى هناك منذ أن تركته جدته ورحلت لمنزل جديد، عقدين من الزمان أو أكثر منذ آخر مرة رأى فيها هذا البيت والشارع والجيران، تري من منهم مازال هناك؟

هل بيت جدته القديم مازال موجودا من الأساس؟

لقد كان بيتاً قديما متهالكاً من هذه البيوت التي غاصت رغماً عنها في الأرض كأنها تحاول الرجوع أو الاختباء والانطواء بعيدا عن الأعين،

لقد سئم البيت والحياة هو الآخر منذ سنوات..

نعم سيذهب إلى هناك..

لا يستطيع كبح رغبته المتأججة في صدره لرؤية البيت الكائن في (شارع بلال).. يشعر أنه مازال موجوداً وإن خلا من سكانه.. لكنه يستطيع رؤيته ورؤية سنوات طفولته البعيدة..

الآن يقترب.. ها هو الطريق المؤدي إلى هناك، يفترشه الباعة البسطاء يعرضون بضاعتهم الرديئة علي صناديق خشبية تقاوم التحطم الكامل..

إنه يبحث في وجوههم عن شيء من الماضي يفتش في ذاكرته ويمسح بعينيه الوجوه..

لقد تعرف علي وجه تلك السيدة ذات الرداء الأسود الحزين، إنه يتذكر ملامحها الثلاثينية كانت ذات ابتسامة وتوهج وحركة.. ويميزها صوتها العالي وضحكتها الطويلة وألوان ملابسها اللامعة، ماذا حدث لها لماذا انطفأت بهذا الشكل؟

ولماذا لا تخبئ تلك الشعيرات البيضاء الظاهرة من تحت الإيشارب الأسود الكالح؟ لا يهم.. لا يمكنه التوقف والتأمل أكثر من هذا فلم يعد هناك من يعرفه بعد كل هذه السنوات وقد أصبح في نهاية عقده الثالث وزينت رأسه شعيرات بيضاء لم تدارها لمعة الكريمات الغالية الثمن..

هذا هو محل بقالة وخردوات عم حسين..

إنه يتذكره جيدا ويتذكر عندما ابتلع قرشا معدنيا وهو صغير أثناء لعبه وعلق القرش في بلعومه وتعالت الصرخات وكاد يفقد حياته هنا علي عتبة الدكان، قبل أن يهرول عم حسين الرجل العجوز ناحيته ويضربه بكل قوته علي ظهره لينطلق القرش خارج قصبته الهوائية ليعلن فور سقوطه علي الأرض أن مازال للعمر بقية..

اقترب من المحل وطلب من الشاب الواقف علبة مناديل وسأله بلطف عن صديق طفولته الساكن في الدور الأعلى للدكان:

ـ حضرتك تعرف أستاذ أحمد حسني؟ اللي ساكن هنا في الدور التاني؟

ـ أحمد حسني!! يااااه.. يا أستاذ تعيش وتفتكر.. الله يرحمه..

ـ مات؟!! أحمد حسني بتاع فنون تطبيقية مات؟

ـ وحد الله يا أستاذ.. ده ميت يجيله فوق العشر سنين.. هو حضرتك مش من هنا ولا ايه؟

قاوم البكاء وكافح غصة في حلقة واستدعي كل قوته ليجر الأحرف من أعماقه

ـ أحمد كان زميلي في الكلية.. وكان صاحبي لما كنت عايش هنا من حوالي عشرين سنة.

ـ الله يرحمه.. مات في عز شبابه، وأبوه مات بعده بأسبوع من حسرته ياولدااه..

ـ اتفضل يا أستاذ نسقيك حاجة..

ـ شكرا.. شكرا.. بعد إذنك..

تلعثمت خطواته وهو يكمل طريقة داخلا شارع بلال القديم..

تزاحمت المشاهد في رأسه.. مشاهد قديمة لفريق شارع بلال وأحمد حسني يقود الفريق ويحرز الأهداف ومشهد مواز عندما التقي أحمد صدفة في أروقة الكلية بعد سنوات وهو يحمل لوحاته البيضاء وألوانه وأقلامه ليتعانقا بعد غياب ويفاجأ كل منهم بالآخر زميلا له في نفس الكلية..

انحني ظهره قليلا وهو يواصل التحرك غير مصدق ما سمعته أذناه منذ قليل، ولكن لم لا فهو اعتاد منذ سنوات علي رؤية جنائز الشباب؟!

الآن يريد العودة من حيث أتى ولكن قدميه قد اتخذتا طريقهما دون الرجوع إليه تقودانه نحو شارع ذكرياته المنسية

إنه يري بيت جدته يظهر من بعيد..

مازال موجودا.. مازال يحتضر في صمت وكبرياء.. غاص أكثر نحو القاع، يكاد الدور الأرضي يختفي تماما ولكن مازال بابه متشبثا يبحث عن النور القادم من خلف البنايات العالية..

لقد أصبح البيت مهجورا وحيداً ضعيفاً محاط بحوائط عالية تكسوه شحوباً وحزناً.. لم يعد بالشارع من ذاكرته القديمة سوى البيت العتيق ذي الحوائط الغليظة وبيت آخر في مواجهته بعد بنايتين..

إنه يتذكر هذا البيت جيداً ويتذكر الفتاة ذات الشعر القصير والبشرة البيضاء والعينين السوداوين المبتسمة دائما..ً

ما هذا؟

لماذا تسارعت نبضات قلبه علي هذا النحو؟!!!

هل مازالت الفتاة موجودة؟

إنه يتذكر وجهها جيداً، لسنوات اعتاد أن يراها في نفس المكان خلف شرفة بيتها القديم ذات الطابع التراثي الخشبي.. لقد كانت دائما في نفس المكان تجلس الساعات تبتسم في هدوء تنظر إلى لا شيء وكأنها لا تأبه بالعالم

أو كأنها تنظر إلى شيء لا نعرفه، لقد كانت تشغل عقله دائماً بصمتها وجلستها ونظرتها الغامضة..

حاول أكثر من مرة معرفة سرها أو جذب انتباهها دون جدوى، لم تكن تعير اهتماما لأحد، فقط تكتفي بابتسامة لا تتغير تفاصيلها أبدا..

كثيراً سأل وهو صغير عنها ولماذا لا تنزل من شرفتها لتلعب معهم وأبدا لم يعرف الإجابة..

الكل كان يتجاهلها ويخاف الاقتراب من هذا البيت خوفا من والدها الرجل المتجهم الذي كان يصيح فيهم ليخفضوا صوت طفولتهم..

إنها.... إنها.... إنها مازالت موجودة..

نعم إنها تجلس في نفس مكانها تنشر في سماء شرفتها ابتسامتها القديمة الطيبة.. يا الله.. إنها هي كما لو أنها لم تكبر عشرين عاماً.. بل ان الأعوام الطويلة زادتها حسناً وجمالا إنها تنظر لى!! إنها تبتسم هل؟

هل تذكرتني؟؟؟

هل تذكرت هذا الطفل الذي اعتاد النظر لوجهها في إجلال؟ إنها تقف، ومازالت تنظر إليّ.. إنها تدير ظهرها للدخول ويدها تتحسس الجدران..

إنها... إنها... عمياء..

تتحسس بيدها طريقها لتغادر نافذتها القديمة..

طوال تلك السنوات لم أعلم تلك الحقيقة.. لم افطن أن ابتسامتها لأنها لم تكن ترانا.. لم تكن تري طفولتنا ولعبنا ولهونا.. لم ترَ أبدا عالمنا..

إنها أبداً... لم ترَ شارع بلال.

ديك سعاد

٥/ ٨/ ١٩٧٩ ـ قرية دانيال – مركز إطسا – الفيوم

أيها السادة، الدوام والبقاء لله، توفى اليوم إلى رحمة الله تعالى المرحوم عبيد محمود عبد الرازق، والجنازة عقب صلاة الظهر من مسجد عباد الرحمن، ويقتصر العزاء على تشييع الجنازة، إن لله وإنا إليه راجعون..

صاح الشيخ سعيد في وجوه النساء المتشحات بالسواد الجالسات في عشوائية متجانسة متلاصقة بجوار باب المسجد بالسكوت ردا على ارتفاع الصيحات والعويل (الطقوس المعتادة لجنازات القرى):

ـ اسكتى يا مرة انتى وهى ما تركبوش الراجل ذنوب اللى هاسمع صوتها هاخليها تغور على بيتها..

لم تسمع هانم أرملة المرحوم عبيد حرفا مما تفوه به الشيخ سعيد فقد كانت غارقة في دوامة حزنها وشعورها بالمرارة الشديدة لفقده، وظلت على حالتها منذ إعلان (حلاق القرية) الدكتور عبد الحليم – كما اعتاد الناس مناداته – نبأ وفاته فجر هذا اليوم المشئوم بعد أن سقط من أعلى نخلة الأستاذ إبراهيم مدرس الحساب في مدرسة القرية (مدرسة دانيال الابتدائية)..

انتهت صلاة الظهر ونادى إمام المسجد الشيخ مصطفى على الحضور بالمسجد:

ـ صلاة الجنازة أثابكم الله... الله أكبر..

خرج النعش مرفوعا على أكتاف رجال القرية في طريقة لمحطة عبيد الأخيرة في مشهد رهيب، وزاد المشهد رهبة ارتفاع صراخ النساء من جديد غير مكترثات بتعليمات الشيخ سعيد بالتزام الصمت عندما سقطت هانم مغشيا عليها تتلقفها الأيدي بصحبة كلمات المواساة التي لم تسمعها هانم مطلقا:

ـ شدى حيلك ياختى وادعيله ربنا يرحمه وينور قبره.. مع السلامة... مع السلامة يا عبيد.. مع السلامة يا أبو سعاد..

خيم الصمت الكئيب على منزل عبيد بعد انصراف ما تبقى من نساء القرية ولم يتبق سوى الوجوم والصدمة على وجه هانم وهى جالسة مستندة بظهرها إلى حائط الفرن الرطب، تسيل دموعها في هدوء وسخونة ببطء على وجنتيها وهى تضع يدها على رأس ابنتها الصغيرة سعاد ذات العشر سنوات، التي لم تستوعب حتى الآن موت أبيها حتى إنها راحت في النوم هربا من تلك الوجوه الباكية أو الشاردة التي امتلأ بها منزلهم طوال اليوم..

شردت هانم في طرق مختلفة متوازية ومتقاطعة من التفكير في حالها وحال ابنتها الصغيرة بعد وفاة زوجها وعائلها فلم يترك لها عبيد سوى الخمسة قراريط التي كان يقوم بزراعتها إلى جانب ارض الأستاذ إبراهيم جارهم.. من البديهي أن حياتها ستتأثر من الآن فهي إن استطاعت الاعتناء بأرض زوجها قطعا لن يترك لها الأستاذ إبراهيم أرضه وسيبحث عن مستأجر جديد..

لم يخرج هانم من تفكيرها سوى صوت أمها الحاجة نعمات وهى تدعوها لتناول الطعام:

ـ هانم... يا هانم.. قومى يا بنتى كليلك لقمة انتى ما دوقتيش الزاد من صباحية ربنا..

– مش قادرة يا امه..

– قومى يا بنتى تعالى على نفسك وكلى أي حاجة مامنوش فايدة يا بنتى، الله يرحمه كان دايما يتعايق وطالع فيها وما يسمعش كلام حد أبدا، خالك ياما اتحايل عليه يجيب مطلاع جديد (يستخدم في طلوع النخل) من ساعة ما اتفك منه الشهر اللى فات وكان هايقع لولا ستر ربنا وكابر زى عوايده وماسمعش الكلام..

– الله يرحمه يا أمه..أهو لا طالع بجديد ولا قديم..

وانخرطت مجددا في البكاء بقوة جعل جسدها يهتز لدرجة أن استيقظت سعاد على صوت أمها وهى تنظر لها ولجدتها بخوف وفزع لا تفهم شيئا مما تراه ولكنها تشعر أن شيئا ما تغير أو كأنها تجلس في منزل آخر غير منزلهم لا تعرفه ولم تعتده من قبل، على الأقل لم يعد فيه أبوها من الآن ولن يعود كما أخبرتها جدتها.

***

مر على رحيل عبيد اثنا عشر صيفا فقدت فيها هانم أمها الحاجة نعمات بعد وفاة زوجها بعام واحد لتعيش تلك السنوات وحيدة في منزلها الصغير على حدود قريتها بجوار ابنتها سعاد التي أصبحت فتاة يافعة تخطت الست عشرة سنة بقليل، ولم تضفِ تلك السنوات على

حياتهم الرتيبة أي جديد سوى أن مساعدة سعاد لأمها في زراعة أرضهم الصغيرة تقلصت كثيرا بعد أن استعانت هانم بجابر ابن جارتها الست فوقية في شغل الأرض عوضا عنها وعن ابنتها واكتفت بتربية الطيور والمواشي في المنزل، واستطاعت بجانب ما تدره الأرض وبيع الطيور إلى جانب (معاش السادات) الذي حصلت عليه بفضل مساعدة جارهم الأستاذ ابراهيم في العيش في حد الأمان الجيد الذي وفر لها دخلا مناسبا جعلها تستطيع كأم ريفية شراء الكثير من شوار (جهاز العرائس) ابنتها سعاد ولم يتبق سوى قدوم ابن الحلال المنتظر..

اعتادت هانم مجالسة جارتها الست فوقية (أم جابر) - وهى امرأة بدينة من هذا النوع المنتشر في نقاط تمركز تثبيت الكرة الأرضية في مدارها الكونى، المسافة بين نقاطها الأمامية يبعد عن آخر نقطة في منحناها الخلفى بحوالى متر صحيح طبقا لمعايير وزارة التخطيط!

تجلسان الساعات الطوال تتحايلان على ملل وهدوء قريتهما وندرة أخبارها وأيامها المعادة المكررة تتجاذبان أطراف الحديث من هنا وهناك وتنتهي دائما تلك الجلسات بدعاء الست أم جابر المأثور (ربنا يستر على الولايا) بعد سرد أدق أعماق دهاليز أسرار وحكايات القرية بيت بيت!!!

في هذا اليوم قدمت أم جابر ساعة عصرية تجالس جارتها هانم في حوار نسائي أكاديمى جدا بدأ بتقرير مخابراتى عن تحركات أهل القرية في آخر عشر ساعات مضت وكان على رأس أخبارها خبر خطوبة البت بنت الحاجة دلال زوجة شحات الفران.. انخفض صوت هانم بشكل ملحوظ وهى تقترب بشفتيها الغليظة من أم جابر في مشهد يوحى من بعيد أنها تهم بتقبيلها بغتة:

– إلا قوليلى ياختى البت سعاد زى ما انتى شايفاها كده قمر والبلد بتتحاكى بجمالها إنما يا حسرة عليكى يا بنتي..

– حسرة؟!!! ليه كفى الله الشر؟ ده حتى سعاد زى البدر في تمامه..

لم تخطئ أم جابر الوصف فقد كانت سعاد كذلك بالفعل فتاة جميلة لا تخطئ العين جمالها الظاهر وإن أردت الدقة فهي مركز تجمع العواصم، هيفاء بيضاء في هدوء بلا ضجيج كسكان شمال أفريقيا وأعين زرقاء كبنات فرنسا الفاتنات وشفاه وردية يتقابل قوساها العلويان بقوة كفتيات أقصى شرق آسيا ولم تهملها أمريكا الجنوبية فمنحتها مؤخرة برازيلية هادئة تنشد السلم الموسيقى في صعود وهبوط طبقات مغنية الأوبرا الشهيرة بيفرلي سيلز..

ـ صدرها صغير قوى ياختى مش عارفة طالعة لمين الا ما حد في عيلتنا ولا حتى عيلة المرحوم أبوها كان كده وأنا مش عارفة أعملها إيه؟

– يوه، يخيبك وليه، وهى لسه اسم النبي حارسها وصاينها راحت ولا جت؟! بكره خراط البنات يجمل ورد الجناين ويرش مية الورد على ميتها..

ضحكت هانم ضحكة كان يمكن تسميتها أنثوية من حوالي عشرين سنة حتى إن نابها الأيمن المفقود ظهر موطنه الأسود بوضوح

– ياختى خراط إيه وبتاع إيه انتى كمان؟ دى بقيت شابة اهو قدام عنيكى والعادة بتيجلها من سنتين وأكتر؟!!

إلا بقى لو كان خراط البنات استعجلها وخلص قوام قوام اكمنها

يتيمة يا حبة عينى وبختها قليل..

- بكرة يا ختى لما يجيلها عدلها يسقى الزرعة ويطرح (سجرها)..

- ما أنا خايفة يكون ده اللى مأخره لحد النهاردة والبت تركن جنبى..

- طب تاهت ولقيناها، البت شربات بنت كريمة مرات حسنين الغفير كانت يا ختى ناشفة وعدمانة وعودها صايص زى عود البرسيم وداخو بيها في مستوصف الحكومة ولا فيش فايدة، لحد ما كريمة عملتلها وصفة عتيقة مقرية عاملها شيخ سره باتع ومفيش شهرين والبت يا ختى اتدورت وملت وبقت زى لهطة القشطة واهى اتجوزت وكمان جابت عيال..

بدت علامات الفرحة على وجه هانم وهى ترجع بظهرها للخلف فاتحة ذراعيها للأمام:

- وساكتة ليه يا أم جابر؟ ما تقوليلى ياختى الوصفة خلينا نعملها للبت قادر كريم يحليها في عين العرسان..

ضربت أم جابر ظهر يدها اليمنى بباطن يدها اليسرى وهى تلوى فمها جانبا في استنكار:

- شوف يا اختى الولية!! وهو انتى فاتحتينى في حاجة قبل كده؟! على العموم أنا مش فاكراها كويس، إنما بكرة من النجمة هاروح للصفرة بنت الصفرة كريمة وأجيبلك قرارها، دى سعاد بنتى زى ما هى بنتك بالظبط..

– النبى يا أم جابر لاكون دايحة جدى ومودياه الجامع لما ربنا يكرمها ويحلى صباها..

– بالخير ياختى ان شاء الله، اقعدى بالعافية بقى والصوبحية أجيلك.. ربنا يستر على الولايا.. تتمسى بالخير.

غادرت أم جابر منزل هانم على موعد باللقاء تاركة خلفها الأرملة في لهفة وانتظار (الوصفة).

***

امتدت يد سعاد الرقيقة إلى لمبة الجاز المعلقة على الحائط تنزعها من مكانها وهى تتحرك بها للخروج من الغرفة تاركة أمها هانم في فراشها حيث كانت تظنها نائمة حتى سمعت صوتها قادما بلهجة حانية:

– رايحة فين يا سعاد؟

– رايحة الدورة يا أمه وبخاف أدخل في الضلمة.

– طب على مهلك يا بنتى وماتحطيهاش على الأرض حطيها على (البستلة) وحاسبى تيجى عليها الميه لا القزاز يفرقع في وشك..

– حاضر يا أمه.. ما أنا عارفة.. هو أنا عيلة صغيرة؟ نامى انتى وما تقلقيش..

لم تستجب هانم لطلب ابنتها بل ظلت مستيقظة تنظر في عتمة حجرتها إلى لا شيء تفكر في جملة ابنتها، صدقت سعاد هي لم تعد طفلة صغيرة بل شابة تزوج معظم من بعمرها في القرية رغم أن سعاد تتفوق عليهن جميعا بجمالها وطيب لسانها حتى إنها تشبه بنات البندر

أكثر من بنات القرى، عندما كانت هانم في عمرها كانت متزوجة ومنجبة لطفل وسيم لم يمهله مرض الجفاف سوى أشهر قبل أن يسلبه حياته.. لماذا لم تصبح سعاد مثل أمها أو حتى تشبهها؟ إنها تحمل ملامح الست (جليلة) أخت المرحوم عبيد لكن ينقصها تاج العرائس أول ما تراه أعين الغرباء، وقد يكون سبب عزوف شباب القرية عنها هذا الاستواء التام في المسافة من أسفل وجهها حتى خصرها الملفوف الملفت!!

لا شك أن البعض يربط بينه وبين عدم قدرتها على الإنجاب مستقبلا كما كانت تسمع من عجائز قريتها منذ الصغر، كثيرا ما سمعت جدتها تقول ذلك وتمدح في هذا النوع من السيدات – السبب في تسمية الجنس البشرى بالثدييات غالبا – وكانت تقول دى ولادة ودارها ما تخلاش من الموغات!

استسلمت هانم لسلطان النوم بعد أنا عادت سعاد تنام بجوارها وهى تحرك يدها صعودا وهبوطا على ظهرها

رقيتك واسترقيتك من عين كل حسود وكل من شافك ولا صلي ع النبى..

***

أشرقت شمس اليوم الجديد وخرجت هانم أمام الدار تتأمل حركة القرية اليومية.. مجموعات متتابعة من أهل القرية وكل يسوق بهائمه متجهين للحقول كالمعتاد في انتظام وهدوء، لا يقطعه سوى صوت دكر جاموس بين الحين والحين كأنه يلقى السلام على صوت الكروان

المتعاقب فوق رؤوسهم: الملك لك لكلك لك لك لك لك لك لك..

وضعت هانم الجردل المعدني في حوض (الطرمبة) وبدأت في حركة ديناميكية صعودا وهبوطا تسقيه من ماء الأرض (المعين) وهى تتأمل غصبا عنها حركة صدرها المتوافقة مع حركة ذراعيها في تعجب لحال ابنتها سعاد محدثة نفسها – إكفى القدرة على فمها.. والظاهر قدرتك ما اتكفتش يا سعاد ولا طلعتي شبه أمك ولا حتى خدتي نص اللي عندها!!

أنهت هانم عملها في (زريبة) منزلها ونادت على سعاد التي كانت أعلى السطح تباشر عملها مع الطيور:

– سعاد يا سعاد... بت يا سعاااد

– أيوة يا أمه أنا نازلة اهو.

– تعالى يا بت خدي الحلة لعمتك جليلة عشان (تخض) اللبن.

– حاضر يا امة آنى جاية اهو.

ودعت هانم ابنتها سعاد في الوقت الذي اقتربت فيه أم جابر من منزلهم يكسو وجهها عرق يتحرك في خطوط سوداء يحمل غبار السكة الزراعية من أعلى جبهتها في خطوط متعرجة ليختفي في ثنايا طرحتها السوداء الخشنة:

– ما تهمى شوية يا وليه.. ده أنا مستنياكى على نار أحمى من نار الفرن من صباحية ربنا.

– على مهلك شوية يا أم سعاد المشوار هد حيلى و(المراتيزم) ياختى مبهدلنى..

– ألف سلامة عليكى يا حبيبتى أنا أصلي استعوئتك قوى، ها عملتى ايه؟ روحتى لكريمة؟

– أيوة ياختى وكله عال العال وقدم خير قادر يا كريم..

جلست أم جابر على حصير الاستقبال في فسحة منزل هانم وألقت طرحتها المبتلة من عرقها جانبا بعد أن مسحت بها وجهها ورقبتها:

– صلى بينا على النبى..

– ألف صلاة عليك يا نبى..

– بصى يا ستى، هاتجيبى ديك أبيض مفيهوش ولا ريشة سودة وتبيتيه في تقفيصة لوحدة خمس ليالي ما يخرجش منها وبعدين تطلعيه وسط الفراخ وبعد ما (يكبسهم) وينفش ريشة كذا مرة تدبحيه وما تقعش منك ولا نقطة دم..

كانت ملامح هانم في ثبات عتيق تخطى مرحلة الإنصات ليشبه تمثال ابراهيم باشا يشعرك بأن الحياة تدب فيه رغم جموده الصخري!!

– ها وبعدين يا أم جابر أعمل إيه بالدم؟

– تغلى الدم مع عرف الديك ولامؤاخذة يا ختى (بيضة) لحد ما يفور وبالليل تدهنى بيه صدر اسم الله عليها سعاد وتلبس جلابية على اللحم وتنام وتتغطى لحد ما تعرق وربنا يهدى الحال ياختى..

-أم جابر..

قالتها هانم بلهجة تشبه لهجة القاضى وهو يطلب من الشاهد الكلام (والله العظيم أقول الحق)

- انتى ياختى متأكدة من الوصفة دى؟ دى سعاد يا أم جابر ده أنا ماليش غيرها..

تبادلت أم جابر دور القاضي مع هانم وهو يضرب بيده بقوة وصرامة فوق (منصة العدل) ليعيد الهدوء والسيطرة لقاعة المحكمة:

- اخص عليكى يا هانم اخص.... هو أنا يا عنى هاقولك على حاجة تأذي البت لا سمح الله؟!!! دى العينة بينة والبت بنت كريمة ما هي قدامك أهية زى قرد قطع وساحبة الولد في ديلها..

رتبت هانم على فخذ أم جابر (العجالى) بحميمية..

- ما تزعليش ياختى والنبى ما أقصدش.. بس مقلقة حبتين، أصلي بعيد عنك وعن السامعين أسمع اللهم احفظنا إن دم الديك ده ولاد الحرام بيعملوا بيه (أعمال سحر) وإحنا ياختى غلابة مش حمل لف ودوخة..

فردت أم جابر قدمها اليسرى وهى تمسح جوانب فمها بشكل مقزز إعلانا لقوة معلوماتها وثقتها الشديدة:

- ياختى مش الديك الأبيض، دوكها بيبقى ديك أحمر يفرق الأحبة أو ديك إسود للملبوس بعيد عنا..

ظهرت علامات الراحة على وجه هانم من دقة معلومات أم جابر

الواثقة وقررت البدء على الفور في عمل الوصفة وهى تهم واقفة تمسك بمنتصف جلبابها الأمامي:

- أنا عندي ديك أبيض فوق في (العشة) هاقوم أجيبهولك تشوفيه..

هزت أم جابر رأسها موافقة هانم على جلب الديك... ديك سعاد..

***

مرت الأيام الخمسة على ديك سعاد المنتظر كأنه ملك متوج على عرش مملكة الطيور من فرط اعتناء هانم به، فقد كانت تجلس بالساعات تنظر لة بهيبة كبيرة!! تطعمه وتغير له ماء (المسقة) كل ساعة تقريبا فقد أصبح في نظرها هو منقذ ابنتها (العذراء).. ولم تترك الست أم جابر لحظة تمر عليها في حواراتها اليومية مع هانم دون أن تسرد الحكايات والقصص عن فلانة وفلانة وهذا وذاك ممن نجحت الوصفات الريفية الشعبية معهم وقلبت حالهم من حال إلى حال ولم تجد تلك الحكايات سوى كل ترحيب وإنصات من هانم يصل لحد الانبهار في أغلبها..

غابت شمس يوم السادس وحل السكون المعتاد على القرية ولم يتبقَ من حركتها سوى تلك التحركات البسيطة خلف أبواب المنازل المغلقة، ولم يكن من السهل على هانم إقناع سعاد بالموافقة على تجريب الوصفة خصوصا مع الهالة الكبيرة التي أحاطت أيام الديك الخمسة (المعزول) في قفصه وحيدا داخل حجرة نومهما دون إجابة من أي نوع من هانم على استفساراتها عن سر عزله ووجوده في حجرتهما، خصوصا بعد أن رأت بعينها تحفز أمها وهى تتركه يمارس دوره الذكورى مع دجاجاته في تشجيع غير معلن لكنه يظهر في نظرة الإعجاب التي تعلو وجه أمها ثم قيامها على الفور بذبحه داخل طبق كبير واستئصال عرفه

وبعض (خصوصياته) كما أفهمتها أم جابر وغليها معا..

تراجعت سعاد بحركة طفولية تحتمي بجدار حجرتهما الطيني وهى ترتجف خوفا:

- لاء يا أمه.. والنبي أنا خايفة بلاش يا أمه..

وأمها هانم تقترب منها ممسكة طبق (الوصفة السحرية) ويدها مغموسة في خليطه الأحمر اللون تقلبه يمينا ويسارا :

- يا بنتى دى وصفة مجربة وهاتخليكى زينة البنات هو أنا يعنى هأذيكى؟!!

- وأنا مالى بس يا أمه؟ ما أنا زى الفل أهو ومفياش حاجة..

- دى يا بنتى عشان تعدل ميزانك وتوزن عودك ويا ما بنات زيك جربوها وفلحت معاهم.

ولم تعطِ هانم أي فرصة لسعاد للاستمرار في الرفض أو المزيد من الجدل فجَردتها من ملابسها، غير عابئة ببكائها الذي علت وتيرته مصحوبا برجفة تعبر عن خوف سعاد المفرط من هذا الخليط المقزز ذي الرائحة الكريهة، التي تشبه رائحة جثث الموتى بعد دفنهم بثلاثة أيام، حتى أنها أفرغت معدتها بمجرد أن لمس الخليط صدرها الصغير، ولم تهدأ رعشتها حتى أنهكتها مقاومة يد أمها القوية وبدأت تستسلم للنوم بعد أن سترت أمها جسدها البض بجلباب خفيف فوق لحمها الملون بلون الدم... دم الديك..

لم تستطع هانم النوم بسبب قلقها على ابنتها ورائحة الوصفة الكريهة

التي زكمت أنفها طوال الليل بعكس سعاد التي جعلت من نوها مهربا لها مما فعلته بها أمها، حتى تخللت أشعة الشمس حجرتهما من ثقوب صغيرة في سقفها المكسو حطبا وقشا فقامت من نومها ولسانها يتمتم بالدعاء لابنتها بصلاح الحال..

مرت أكثر من ثلاث ساعات باشرت فيهم هانم عملها في دارها فقدمت وجبة الإفطار لبهائمها وأيضا للطيور بدلا من سعاد حتى أنها ذهبت إلى السوق تقضى بعض الأشياء وعادت تتقدم جارتها أم جابر ذات الخطوة البطيئة..

وضعت هانم (المشنة) من فوق رأسها قبل أن تنادى على سعاد أكثر من مرة دون أن تأتيها إجابة أو تسمع صوتا غير صوت شهيق وزفير أم جابر التي كانت تقف خلفها مباشرة:

ـ ياختى هي البت لسه نايمة لحد دلوقتى ولا إيه؟ دا الضهر قرب يدن يا أم جابر!!

أجابت أم جابر بكلمات متقطعة بسبب لهاثها:

ـ تعالى ياختى ندخل نصحيها خليكى تلحقي تشطفيها قبل الظهر..

وجدت هانم ابنتها سعاد في مكانها على جانب فرشة نومهما كما تركتها دون أدنى تغيير قبل أن تمد يدها تهزها وهى تناديها أكثر من مرة بنداء تعلو وتيرته وحركة يدها تزيد من هز كتف سعاد بلا فائدة:

– سعاد.. سعاد.... بت يا سعاد.... يا سعاد

دقيقة على الأكثر من نداءات هانم الضائعة في فراغ الحجرة وصمت

أم جابر – إلا من صوت جهازها التنفسي – المبحلقة دون رد من سعاد كانت كفيلة أن تجعل هانم تصرخ بأقصى قوة لأحبالها الصوتية:

ـ سعاااااااااااااااد.. سعاد بنتي ماتت يا أم جابر.. بنتي ماتت..

قبل أن تسقط مغشيا عليها..

***

ساد اللون الأصفر الأرض أمام منزل سعاد بعد أن افترشت النساء الأرض بحصير السمار الأصفر العتيق لاستقبال المعزين وأهل القرية ممن حضروا لتشييع الجنازة، لا يقطع كلمات التعزية التقليدية سوى ارتفاع صوت ميكروفون المسجد من حين لآخر معلنا عن وفاة سعاد عبيد محمود عبد الرازق وأن تشييع الجنازة بعد صلاة العصر..

همس الأستاذ إبراهيم في أذن الحاج زكى عم سعاد الواقف بجواره على رأس المستقبلين:

– انتو شيعتوا للدكتور سعيد ييجى يبص على البت ولا لسه يا حاج زكى؟

– مش مستاهلة يا بني وكده كده هو مش موجود النهارده وفى البيت قالوا إنه في المستشفى في (إطسا) وهاييجى بالليل، ومش معقول نستناه يابني ده إكرام الميت دفنه وأهو الدكتور عبد الحليم (حلاق القرية) بص عليها من ساعة ما جالنا الخبر، وكمان إدى هانم حقنة بعد ما وقعت من طولها، الولية يا ولداه مش داريانة بحاجة من ساعة ما عرفت إن بنتها ماتت... إنا لله وإنا إليه راجعون..

ورغم أنه لم تخلُ أي جنازة من تنبيهات التحذير والتشديد على النساء بعدم العويل والصراخ الا إنها كلها كانت تذهب أدراج الرياح ولا تجد في آذانهم مأوى أو حسن استقبال، وخاصة عندما دخلت الست العجوز أم العز (مغسلة النساء) تتخطى رءوس النساء القابعات في أرض المنزل بملابسهن السَوداء يشبهن الذباب المتجمع على صرصار ميت! ولسانها لا يتوقف عن النطق بالشهادة إلا عندما سألت النساء عن هانم أم سعاد:

– فين هانم يا ولاد تدخل معايا واحنا بنغسل المرحومة؟

جاءتها الإجابة على لسان الحاجة جليلة عمة سعاد:

– تايهة وغايبة عن الدنيا يا حبة عينى.. قلبها متحملش خبر موت بنتها اللي ليها في الدنيا، يا كبد أختك يا هانم ياختى يا متصابة يا اللى دمعتك ما نشفتش على خدك يا حبيبتي.. ياهوووووتى..

قاطعتها أم العز بحزم وقوة وهى تشير بإصبعها أمام فمها بالسكوت قبل الانخراط في نوبة العويل:

ـ بس يا ولية بطلى صويت وقومى تعالى معايا نغسل البت بدل أمها..

أجابت جليلة بفزع وهى تضرب بيدها على صدرها..

– أني؟!! أني اغسل بنت أخويا؟!! والنبى ماقدر ولا قلبي يطاوعنى أبدا.. يا خسارتك يا بنتى يا اللى ما دخلتى دنيا ولا فرحتى ياختى.. ياهوووووتى..

صاحت أم العز بقوة أكثر وهى توقف جليلة للمرة الثانية من عويلها المستمر المصحوب بضرب يدها على وجهها..

- خلاص خليكى يا مرة يا خايبة، واحدة فيكو تيجى معايا نغسل البت وشوفوا الكفن وصل ولا لسه.. وشيعى يا جليلة حد يجبلى كيس قطن وقومى فزى يا ولية خلينا نخلص قبل العصر ما يدن..

ضمت أم العز حاجبيها تعبيرا عن تقززها من الرائحة الكريهة المنتشرة بغرفة المرحومة سعاد وتراجعت للخلف بقوة كمن لدغها ثعبان لا تتناسب مع عمرها عندما انتزعت جلباب سعاد ورأت جسدها الملطخ بدماء الديك..

ـ يا لهوى ياختى إيه الدم ده يا أم جابر؟! هى البت ماتت موتة ربنا ولا مقتولة يا وليه؟

جاءت الإجابة على لسان أم جابر المتطوعة لمساعدتها في غسل سعاد عوضا عن أمها الغائبة عن الوعي وعمتها الخائفة:

- لا يا حاجة.. ولا مقتولة ولا حاجة.. دى ياختى أمها كانت داهنة صدرها ليلة إمبارح لجل ما تصلح عودها..

- اوعى يا أم جابر يكون في الأمور أمور، إحنا مش ناقصين بلاوى ياختى..

- ياختى ولا بلاوى ولا يحزنون.. ما البت قدامك اهو مفيهاش حاجة.. الله يرحمك يا سعاد يا بنتى يا اللى ما فرحتى أبدا يا بنتى يا صغيرة ع الترب ياختى..

- طب بس يا ولية انتى هاتعددى على راس الميت؟ ايدك معايا خلينا نخلص ونسترها.. يارب يا حنان يا منان يا كريم يا ساتر الستر يا رب.. بسم الله.. بسم الله... بسم الله..

انتهت أم العز من عملها بمساعدة أم جابر ووضعت القطن في فتحات الفتاة العذراء التي توارى جسدها خلف قماش الكفن ثوبها الأخير حتى سمعت أم العز آهة مكتومة مجهولة المصدر..

ـ مالك يا أم جابر؟ انتى تعبتى يا ولية؟

- مالى؟!! ماليش يا ختى ما أنا واقفة معاكى أهه!!

- أومال بتتأوهى ليه يا وليه؟!!!

- انى ياختى لا اتأوهت ولا فتحت حنكي..

- يوه أومال مين اللي قال آه؟!

لم تأتها الإجابة على استفسارها على لسان أم جابر بل من حركة ضعيفة من هناك.. من تحت قماش الكفن.. كفن سعاد..

***

سادت حالة من الهرج والضوضاء قرية (دانيال) لم تعرفها أبدا من قبل منذ أن ترك ادم الجنة واستوطن الأرض!!

تصبب العرق من جبهة الحاج زكي عم سعاد وهو في حالة عصبية شديدة بدت واضحة في حركة عينة الزائغة والرعشة الواضحة في شفته العليا:

ـ في إيه يا ولاد؟؟ حد يفهمنا اللي بيحصل.. مالها أم جابر؟!!! مالها أم جابر يا بت انتي وهي؟

تبخرت أسئلة الحاج زكي في سماء الخليط العجيب داخل منزل سعاد.. وجوه وصرخات نساء القرية الواقفات في فناء المنزل ينظرن بخوف لحجرة سعاد.. يتطلعن بفزع ولا تجرؤ إحداهن علي الدخول!!

مشهد مخيف غريب لم يستطع الحاج زكي تفسيره هو أو أستاذ إبراهيم وبعض رجال القرية ممن استجابوا لصرخات النساء المفزوعة التي انطلقت من دقيقة علي الأكثر..

النساء واقفات في تقارب شديد يضممن أيديهن أمام وجوههن تعبيرا عن الخوف.. يفصل بينهن وبين غرفة سعاد جسد أم العز تجلس القرفصاء وتضع يدها علي صدرها الذي يعلو ويهبط بقوة وسرعة كبيرة كأنها قدمت توا من سباق مئة متر، وأمامها في تكوين يشبه اللقطات الأولى لأفلام (هيتشكوك) ترقد أم جابر علي ظهرها بلا حراك بجوار فرشة سعاد التي تظهر رأسها وهي تضع يدها عليها ومازال جسدها نائما تحت لفافات كفنها الأبيض..

جاء صوت أم العز متقطعا مبحوحا لم يكن ليسمعه أحد لولا أن الصمت لف المكان بمجرد أن رفعت رأسها وبدأت في الكلام

– البت عايشة.. البت عايشة ماماتتش..

تشبثت نظرة أم العز بوجه الحاج زكي كأنها لا تري غيره..

– بنت أخوك عايشة يا حاج زكي... البت كانت هاتدفن حية.. منك لله يا حلاق الغبرة... منك لله يا عبد الحليم..

لم تتحرك أي سيدة من المتواجدات نحو سعاد أو أم جابر خوفا وشكا ولعدم قدرتهن علي استيعاب ما يرين ويسمعن،

فقط الأستاذ إبراهيم من اتخذ قراره وهو يصيح في احد الواقفين:

- اجري بسرعة هات الدكتور صبحي من تحت الأرض..

وهو يجثو علي ركبتيه يتفقد أم جابر التي لم يكن لها رد فعل يذكر، لم ير صدرها يتحرك أو يشعر بنبض يدها، لكن من يملك في هذا المشهد أن يدرك ويستنتج ويفسر؟!

ترك الأستاذ إبراهيم كف أم جابر يسقط من يده مفزوعا كمن قرصته كوبرا سوداء عندما دوي صوت هانم يشق صمت المشهد

- بنتتتتتتتتي.. بنتي فين؟ يا سعاد..... سعاااااااااد..

لن يستطيع أكبر الشعراء ولا أشهر القصاصين أن يصف بكلمات تلك اللوحة التي تحمل كل مآسي وأحزان وآمال كل كواكب المجرة مجتمعة.. هل كانت هانم وهي تضم سعاد لصدرها تتأكد من أنها مازالت حية أم تريد أن تهبها من حياتها هي..

جاء صوت سعاد ضعيفا وهي تستمد من أحضان أمها ما يقويها علي الحديث:

- أنا فين يا أمه؟؟ في إيه حصل إيه يا أمه؟

ثم سكتت برهة كأنها تذكرت شيء ما قبل أن تضع يدها علي صدرها:

- الديك... الديك يا أمه بياكل صدري!!!

أمطرت هانم وجه ورأس سعاد تقبيلا ولمسا وهي تربت علي ظهرها بفرحة شديدة لا يعبر عنها سوي دموعها الغزيرة التي بللت وجهيهما معا..

ـ لا إله إلا الله... لا حول ولا قوة إلا بالله.. قادر علي كل شيء يا رب..

تلك الكلمات التي انطلقت بلا توقف علي ألسنة كل الحضور حتى حضر الدكتور صبحي الذي خرج من غرفة سعاد بعد أن أعطاها حقنة مهدئة وهو يعلن أن البنت مازالت علي قيد الحياة لم تمت وان ما حدث مجرد تشخيص خاطئ من الجاهل الجهول حلاق القرية عبد الحليم الذي لم يفرق بين الهبوط الحاد الذي أصاب سعاد من خوفها وبين أن تكون ماتت فعلا،

لكنه لم يستطع أن ينقل الفرحة للموجودين بعد أن أعلن عن وفاة أم جابر..

ماتت المرأة العجوز البدينة التي لم يتحمل قلبها المحمل بالدهون تلك الصدمة المفزعة... سعاد طلعت عايشة..

***

لا تخرج مثل هذه الحوادث نادرة الحدوث من رحم الريف جنينا طبيعيا بل جنينا مشوها يشبه المسخ اللعين، وهذا ما حدث لسعاد وحادث موتها الغريب وعودتها للحياة... فقد وضع كل فرد في القرية بصمته في تناول قصتها!!... حتى إن أحدهم زعم بثقة بالغة أنها ماتت

فعلا ولكن جنيا عظيما سلب حياة أم جابر ووهبها لسعاد بسبب عشقه لها، ورغم تصدى شيخ المسجد والكثير من الأشخاص المتعلمين لتلك الشائعات وأنها لا أساس لها من الصحة وتصل أحيانا للكفر – والعياذ بالله – كما قال الشيخ في خطبة الجمعة التي خص موضوعها لهذا الحادث إلا إن عشق أهل الريف لتلك الحكايات كان أقوى من حجة الشيخ ومن فصاحة المتعلمين!!!

سكن قلب هانم الفرح الشديد والخوف العارم والقلق المزمن لما حدث لابنتها وخصوصا لشعورها أنها هي وديكها السبب فيما حدث لها، وأنساها وضع سعاد الغريب رغبتها في زواجها وانشغلت بحال ابنتها التي لم تعد تستطيع مواجهة أعين أهل القرية التي تأكل جسدها وعرفت الكوابيس طريقها إليها وباتت تنام في أحضانها كل ليلة وتستيقظ عشرات المرات فزعة خائفة باردة الأطراف مرتعشة..

احتضنت هانم ابنتها سعاد بعد أن أيقظها احد كوابيسها وهى تربت على رأسها وتقرأ لها المعوذتين وسعاد لا تتوقف رعشتها وهى تضم أمها بقوة كأنها تريد أن تحتمي خلف ضلوعها..

– الديك يا أمه.. كل ما عيني تروح في النوم ألاقيه جايلى وبقة متعاص دم ويفضل ينئر في صدري.. بيقطع لحم من جسمي يا أمه وببقى عايزة أجري منه ورجلى مابتقدرش..

قاومت هانم دموعها وهى تحاول منع حشرجة صوتها وتمسح بيدها على صدر سعاد..

– حقك عليا يا بنتي.. ياريتنى كنت مت ولا شوفتك كده يا بنت بطني..

لم يكن هذا المشهد سوى تكرار ليالي سعاد وأمها لأسابيع طوال زارت

فيهم هانم أكثر من شيخ وأنهكها الذهاب للصيدلية الموجودة في المركز (إطسا) لجلب دواء الدكتور صبحي الذي ساعد سعاد كثيرا في الاسترخاء والقدرة على الاستمرار في الحياة، حتى طرق بابها يوما الأستاذ إبراهيم جارهم الذي بدا على وجهه بشائر الأخبار الجيدة في ابتسامته الكبيرة التي أجبرت لغده الضخم على ملامسة صدره!!

- صلى بينا على النبي يا أم سعاد..

- ألف صلاة ونور عليك يا نبي..

- بقى انتي عارفة إن من يوم وفاة أم جابر ألف رحمة ونور عليها والواد جابر ابنها وهو قاعد في دارهم لا حد يونسه ولا حد يا خد بحسه.. وبصراحة الواد جالى ديك النهار وفاتحني في موضوع وطلب منى أتوسطله عندك..

- خير يا أستاذ إبراهيم ماله جابر؟!! يكش يكون عاوز يهمل أرضنا ويبطل يزرع فيها، حاكم إنى عارفة إن أمه الله يرحمها هي اللي كانت غاصباه علينا..

- لا يا شيخة.. انتى فكرك راح لبعيد قوى.. ده جابر ابن أصول ومايعملش كده.. هو قصدني في واسطة خير أفاتحك في جوازه من سعاد..

ضربت هانم بيدها على صدرها وهى ترفع حاجبيها وتفتح فمها:

- يا كبد أمك يابنتى.. ياالى انكتب عليكى الحزن يا ضنايا

اختفت ابتسامة الأستاذ ابراهيم واستبدلها بنظرة دهشة كبيرة:

- ليه كده يا ست هانم كفى الله الشر!!! الراجل جايلك وقاصد خير.. وجابر مايتعيبش وحداه ارض قد أرضكم يعنى لا طمعان ولا يحزنون..

– مش القصد يا اخويا.. بس جابر!!! جابر!!! ده مهما كان بيشتغل عندنا.. ولولاش ولاد الحرام اللي يتشكوا في مصارينهم اللى بيلسنوا على بنتى مكانش استجرا وطلبها..

– لا لا يا ست هانم مالكيش حق في الكلام ده خالص.. جابر ابن أصول وعنده ملك زيكم وان كان بيشتغل في أرضكم فده لأنه بيراعى ربنا في الجيرة وان دى أرض عيلة يتيمة، وبينى وبينك يا أم العروسة أنا مش هاضحك عليكى.. سعاد بنتك تتاقل بالدهب لكن ما تأخذينيش يعنى اللى جرالها مش شوية.. وانتى عارفة أهل البلد بيخافوا وبيصدقوا أي كلام، دول للنهاردة مصدقين ان في جنية في البحر وبتطلع تسرح شعرها على الجسر بالليل..

تجاوزت هانم نقاش الأستاذ إبراهيم في نفيه أسطورة جنية البحر المؤمنة بها هي شخصيا وخفت حدتها في الكلام وهى ترمى بنظرها باستسلام لأسفل:

ـ طيب ياخويا على العموم ادينى جمعة أشور على أعمامها وأخوالها وكمان أشور البت يمكن الواد ما يلدش عليها ودى بنتى اللي طلعت بيها من الدنيا..

ربت الأستاذ إبراهيم على كتف هانم وهو يهم بالنهوض مودعا:

ـ عموما يا أم سعاد الرأي رأيكم وإن كنت شايف إن جابر ابن حلال وبلاش تكسروا بخاطره..

ودعت هانم الأستاذ إبراهيم وبمجرد أن أغلقت باب الدار حتى فوجئت بسعاد تقف خلفها مباشرة وقد استمعت للحوار كاملا واتخذت قرارها:

– آني موافقة يا أمه... وهاتجوز جابر....

لم يكن جابر يوما فتى أحلام سعاد..

كانت تراه يوميا بحكم عمله وبحكم الجيرة ولكنها لم تكن ترى فيه نموذجا للعريس الذي طالما حدثتها عنه وعن مواصفاته والدتها هانم، وخصوصا أنها كانت دائما ما تؤكد لها أنها ليست مثل باقي فتيات القرية وأن جمالها سيأخذها لزوج مختلف ذي مواصفات خاصة!!

ـ ولكن لِمَ لا يكون جابر؟!!

هكذا حدثت سعاد نفسها، إنها لأول مرة تكتشف إنها لم تتخيل يوما صورة لفارس أحلامها.. فقط كانت تنتظر قدومه.. فلما لا يكون هذا الفارس هو جابر؟؟

جابر شاب قوى يملك أرضا أكبر من أرضهم وما تعرفه عنه أنه يحمل قلبا طيبا لا يحمل ضغينة لأحد ولكن.. هي (لكن) وما بعدها من استفسارات وتناقضات واحتمالات في أكثر من اتجاه..

هل يريدها جابر زوجة لأنه يرغبها أم شفقة لما حدث لها من وصفة أمه؟

لا ليس تكفيرا عن ذنب امة لأنه لا يعلم.. ولا احد غيرها هي وأمها هانم يعلم أن أم جابر هي صاحبة وصفة (الديك)..

لكن يبقي شيء..

من الممكن أن يكون قد أشفق عليها من تجربة موتها الصعبة ومن كثرة كلام الناس عنها..

أخذت سعاد تفكر.. ويأخذها الاحتمال لاحتمال آخر في حلقة مفرغة لا نهاية لها حتى أنهكها التفكير دون الوصول لإجابة نهائية تريح عقلها وتقلل ضربات قلبها المضطرب..

اتخذت سعاد قرارها بضرورة التكلم مع جابر وستعرف بقلب الأنثى الإجابة علي أسئلتها - رغم أن أي إجابة لن تغير شيئا.. وكم يتمني قلبها الصغير أن تجد عند جابر ما يخفف عنها معاناتها..

لم تعترض هانم الأم الحزينة علي ذهاب سعاد بالطعام لجابر في الحقل وهي من كانت ترفض هذا فيما مضي ولكنها أكدت علي سعاد أن لا شيء يجبرها علي الزواج من جابر وان مازال أمامها العمر مليء بالفرص والفرسان..

لم يكن لكلام هانم أي أثر في قرارات سعاد لثقتها الشديدة أنه لا يتعدى إرهاصات أم ثكلى تشعر بوخز الضمير تجاه ابنتها وما فعلته بها بجهلها..

اقتربت سعاد من جابر ولأول مرة تشعر بهذا الخفقان في قلبها ورعشة لا تراها العين تملكت من أطرافها حتى أنها نسيت كل ما جهزته من كلام ورتبته من أسئلة، ولم ينقذها من حيرتها وحالتها المزاجية الجديدة سوى صوت جابر الذي انطلق نحوها يأخذ منها (لفة الطعام):

- عنك يا سعاد.. تسلم إيدك يا ست العرايس..

وكأنها تسمع صوته لأول مرة وتري ملامحه عن قرب بنظرة أخرى جديدة تماما جعلتها تتلعثم وتقريبا لم تصدر منها سوى همهمات..

- مالك يا سعاد؟ شكلك متغير ومتاخدة زي ما تكوني مش طايقاني..

- أني؟!!!أني مش طيقاك؟!! ليه بتقول كده يا جابر؟؟

- أني عارف إنك مش رايداني وإن أمك كانت عاوزة تجوزك أفندي من بتوع البندر لكن أني مش غاصبك علي حاجة وطالما مش ريداني براحتك يا سعاد.... أني مش زعلان ومش هاهمل أرضكم حتي لو رفضتوني..

للمرة الثانية تشعر سعاد أنها تقابل وترى وتسمع جابر لأول مرة وأنها لم تكن تعرفه مسبقا علي الإطلاق..

- ليه يا جابر؟؟ ليه تفكيرك فيا إني رفضاك؟!!

كغريق لامست يداه طوق النجاة وهو علي أعتاب الموت جاءت ردة فعل جابر وهو يرفع عينه يتفحص وجه سعاد رافعا حاجبيه دهشة وفرحة ولا تصديق..

- قصدك إيه يا سعاد؟؟ يعني إنتي موافقة تتجوزيني؟

- إني مش رافضاك يا جابر..

زادت حيرة جابر أكثر من إجابتها وجعلت الحيرة فرحته تخفت..

ـ يعني موافقة ولا مش موافقة؟ أني مش فاهم كلامك..

ـ جابر.. أنت ليه عايز تتجوزني وليه ما اتكلمتش من زمان؟

رجع جابر يهرب بنظره بعيدا عن عيني سعاد وتأثيرها:

- أني.. أني... أني عاشقك يا سعاد.. عاشقك من يوم ما عيني فتحت ع الدنيا وأني شايفك قدامي بتكبري يوم بيوم كأنك زرعة برويها بإيدي..

أصبحت رعشة سعاد تراها العين وتشعر بها في صوتها الذي انتقلت له العدوى:

ـ ياه يا جابر.. بس إنت عمرك ما كلمتني أو حتى لمحت لي بحاجة؟!!

ـ مكنتش أقدر أكلمك ولا حتى ألمحلك وأنا عارف إن أمك عاوزالك أفندي من البندر..

ـ ودلوقتي يا جابر؟ ينفع تكلمني عشان بقيت معيوبة والناس بقت تخاف مني وبيقولوا عليا ملبوسة؟

كمن لدغته كوبرا انتفض جسد جابر وهو يمد يده يمسك بيد سعاد المرتعشة وهو يصيح:

ـ قطع لسان اللي يجيب سيرتك بحرف واحد أني مش ممكن أفكر كده..

أني حسيت إنك تعبانة وإنك محتاجة لحد جانبك ومن غير ما أفكر جريت علي الأستاذ إبراهيم أطلب إيدك عشان مش عارف أفضل بعيد عنك وانتي محتجالي..

«وانتي محتجالي.... وانتي محتجالي»..

ظلت الجملة تتكرر في اذن سعاد وهي تنظر في عين جابر الناطقة صدقا وعشقا:

– واني كمان محتجالك يا جابر أني.... أني... أني موافقة يا جابر..

***

عرف الفرح طريقه لقلب سعاد بعد أوقات عصيبة عاشتها بين كوابيسها أحيانا وتخوفها من نظرات الناس أحيانا أخرى، وانعكس هذا علي هانم التي عادت لها روحها من جديد وهي تري ابنتها تعود لما كانت عليه غضة نضرة تضيء منزلهم الصغير بفرحتها وشبابها..

لم تحتج سعاد لكثير من الوقت لتجد نفسها عاشقة متيمة بجابر حتى أنها جلست الساعات الطوال تفكر كيف مر كل هذا الوقت بجوار جابر ولم تشعر بأي مشاعر خاصة تجاهه أو علي الأقل تشعر بعشقه الكبير الواضح جليا في كل تصرفاته وكلماته وتعبيراته؟! مما دفعها بثقة شديدة ورغبة كبيرة

أن تقص عليه قصتها وكيف حدث لها ما حدث وأوصلها لمصاحبة الكوابيس الليلية مع ديكها اللعين الذي يزورها يوميا يشعل ليلها فزعا ويظل جاثما علي صدرها يمارس طقوسه اليومية في مطاردتها، وينقض عليها بمنقاره الملطخ بالدماء ينهش صدرها ويقطعه حتى تستيقظ علي صرخة تجعل جسدها ينتفض قبل أن يتركها ويذهب علي موعد بالزيارة في الليلة القادمة..

ربت جابر علي كف سعاد قبل أن يحيط كفها بيديه ويضمهما عليه بقوة حانية:

– استعيذى بالله وما تشغليش بالك بالكلام ده تاني.. بكرة نتجوز وعلي الله يفكر يجيلك ولا يهوب ناحيتك وأنا آكله صاحي بسناني..

– ربنا يخليك ليا يا جابر ومايحرمنيش منك.. بس..

– بس إيه يا سعاد؟!! سكتي ليه؟ قولي كل اللي ف بالك..

– خايفة يا جابر بعد ما حبيتك واتعلقت بيك تسيبني وتخاف مني زى باقي الناس.. جابر.. أني حبيتك وما بقتش أطمن غير وإنت جنبي..

لم تتمالك سعاد نفسها وهي تنخرط في نوبة بكاء وتسند رأسها علي كتف جابر:

ماتسبنيش يا جابر... ما تسبنيش..

جاء رد جابر حاسما بليغا بلا كلام.. ضم يدها يبث في نفسها الطمأنينة ويبعث في قلبها روحه.

بات من الضروري لجابر أن يقف علي حقيقة ما حدث لسعاد..هل ماتت فعلا كما يسمع؟ أم أنها ذهبت في غيبوبة ثقيلة كما قال الطبيب؟ أم أنها ملبوسة بجن قوى شرير كان يريد الهروب بها بعيدا عن أعين البشر

ليتزوجها في عالمه السفلي تحت الأرض؟!!

اتجه جابر إلى الشيخ شاكر شيخ القرية الذي درس بالأزهر الشريف علاوة علي أنه كثيرا ما قام بعلاج حالات اللبس في القرية ونجح في استخراج الجن الطيب والشرير، فهو لن يستطيع الذهاب للطبيب والاهم لن يجد عنده إجابات مريحة لأسئلته..

أتم جابر صلاة العشاء في المسجد وانتظر انصراف الناس ولم يبق سواه والشيخ شاكر الجالس في سكون في قبلة المسجد يبتهل الدعاء فاقترب منه بإجلال وجلس قبالته بعد أن صافحه:

ـ عايز مشورتك يا شيخنا.. أنا خطبت سعاد بنت المرحوم عبيد وكنت... كنت عايز... عايز..

قاطعه الشيخ شاكر وهو يربت علي ركبته:

- استهدي بالله يا جابر يا بني وان شاء الله خير..

- حقك عليا يا شيخنا.. أنا مش عارف أقولك إيه.. بس كلام الناس كتير وأنا بقيت تايه وبرضك عايز سعاد ومش ناوى أسيبها..

- إنت مالك ومال الناس وكلامهم يا بني؟ المهم انك راضي والبنت ريداك وانت رايدها..

- بصراحة يا شيخ الناس بتقول إن في جن سفلي عاشقها ومش هايسيبها حتي لو اتجوزتها وهايخليها تشوفني مسخوط وتخاف مني..

- لا حول ولا قوة بالله.. وهو يابني اللي يسمع كلام الناس يروح أو يجي؟!.. عروستك يابني بنت حلال ومتربية واللي حصلها ده مالوش اي علاقة بجن أو بغيره.. البت اتخضت والخضة للعذارى يتبقى شديدة.. وإنت

يا بني لو عايزها وبتحبها يبقي واجب عليك تمحي الخضة دي بأنها تلاقيك راجل وماسك نفسك قدامها..

وجد جابر نفسه يقص علي الشيخ شاكر قصة سعاد والديك كاملة وهو يشعر براحة شديدة من مشاركة أحد لهما وخصوصا إذا كان الشيخ الوقور..

أخذ الشيخ شاكر نفسا عميقا قبل أن يجيب:

- شوف يا بني.. الديك ده هو خوف سعاد من بكرة وخوفها إنها مايجيلهاش عرسان وده الخوف اللي أمها نقلتهولها يمكن عشان ملهاش غيرها ويمكن علشان ما فكرتش في اللي خلقها واللي بيوزع الأرزاق والأنصبة علي خلقه..

- ونعم بالله يا شيخ..

- إنت يا جابر الحل.. إنت اللي هاتطفش الديك لما إنت.... إنت تبقي لسعاد الأمان.. والعريس.. وبكرة اللي مش هايكون فيه ديك يخوفها أو ينهش لحمها.. اتكل علي الله يابني وانوى خير وبإذن الله مجبور يا جابر..

بسم الله الرحمن الرحيم (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويعفو عن السيئات) صدق الله العظيم..

قبل جابر رأس الشيخ شاكر وانصرف وهو ينوى إنهاء معاناة سعاد.. ويقضي علي الديك..

***

طالع يناغشها... نازل يناغشها... كسر غوايشها

ع الكحلة والمرايه.... بس الولا يجي... بس الولا يجي..

لم تحتج سعاد لهذا الكم من الألوان النسائية لتظهر جمالها، فقط كان يكفيها أن ترتدي فستان الزفاف الأبيض لتصبح صورة أرضية للملائكة، أو نبذة مختصرة عن الحور العين..

انتهت طقوس الزفاف بعد أن غنى من حضر من النساء باقة منوعة من فولكلور الريف وتراثه الفاحش الثراء، وانتشرت أصوات الزغاريد المتنوعة الطبقات الصوتية والمتباينة في بدايتها وصيغتها النهائية دون الوقوع في فخ العشوائية لتصنع سيمفونية تزلزل النفس وتهيئها لشيء قوى قادم،

لم يتبقَ في حجرة سعاد الجديدة سوي أمها هانم والست سعدية عمة جابر قبل أن يدخل جابر ويطلب منهما الخروج، ويبدو أن كلامه لم يجد مكانا عند هانم أو سعدية حتى أن هانم أجابت وهي تلوى شفتيها:

– طيب ياخويا خارجين.. إحنا قاعدين برة يا سعاد ناديلي لو عوزتي حاجة..

وإنت يا اخويا علي مهلك علي البت وخدها بالسياسة..

أجاب جابر باستنكار وهو يرمي شاله الأبيض جانبا:

– وهاتقعدوا بره ليه يا أم سعاد؟! كل حاجة تمام ومظبوطة وكتر خيركم قوى كده، يلا روحوا وتعالوا الصبح..

لم تترك سعدية المجال لهانم للرد فقد سبقتها وهي تلوح بيدها:

– والنبي ومن نبّى النبي ماني متعتعة من هنا.. ولا يكش عشان أمك ماتت فاكر مالكش أهل؟! أني قاعدة يا ضنايا بره لحد ما نطمن علي عروستك..

ردت هانم وهي تجهز نفسها للدخول في معركة نسائية:

– أيوة ياختي خليكي إحنا معندناش حاجة تخوفنا.... وخلي ياختي ابن

أخوكي يكشف علي عرضه دلوقتي قدامنا (بلدي) إحنا معندناش حاجة نخاف منها..

تدخل جابر وهو يلمح الكحل يسيل علي خدود سعاد من تساقط دموعها لما ترى وتسمع:

– بس يا ولية انتي وهي مش عايز أسمع صوت أي واحدة فيكم.. يلا من غير مطرود انتوا الاتنين اطلعوا بره.. محدش له دعوة باللي بيني وبين مراتي.. روحوا يعني روحوا.. بلاش الليلة تختم بمصيبة..

جاءت كلمات جابر تحمل من الجدية والحزم ما جعل السيدتين تتحركان في طريق الذهاب..

امتدت يد جابر ترفع طرحة الزفاف عن سعاد وهو يضع قبلة حانية على جبينها:

ـ نورتى دارك يا ست البنات

ـ بنورك يا جابر..

ـ قومي يا زينة البنات غيري هدومك وتعالي ناكل لقمة.. حماتي متوصية قوى بالعشا هههههههه..

انتهي العروسان من العشا قبل أن يمسك جابر بسعاد وهو يضمها في صدره

– تفتكري الديك هايجيلك النهاردة يا سعاد؟

– اخص عليك يا جابر وده وقته تفكرني بحاجة زى دى.. أنا مطمنة وإنت معايا..

– اطمني يا سعاد من النهارده مفيش ديك هايجيلك في المنام طول ما أنا جنبك..

وانقض جابر ينقر صدر سعاد بنهم وضحك مشترك فقد فهمت سعاد ماذا يقصد..

إنه جابر.... الذي أصبح هو... ديك سعاد..

حلم فرح

من اعتاد انتظار الآخر يصنع له ما يريد ويحقق الأحلام ويكمل الآمال، ضاع منه ما تبقي من عمر وتبددت الآمال وانتهت الأحلام...

عزيزي المشاهد: اصنع مستقبلك بنفسك وكما قالت الأمثال قديما(ما حك جلدك مثل ظفرك)..

انتهت حلقتنا ولم ينتهِ تواصلنا علي أمل اللقاء.. أنتظركم..

انتهت (فرح) من يوم تصوير شاق جعلها تتنفس الصعداء فور انتهاء تسجيل الحلقة الأخيرة في هذا اليوم وظهرت علي ملامحها الثلاثينية فرحة طفلة صغيرة في أول أيام إجازة نهاية العام..

- فرح... فرح..

انتبهت فرح لصوت غادة المخرجة الشابة مخرجة برنامجها الأسبوعي وصديقتها الأنتيم وشريكتها في شقتها الصغيرة مع صديقتهما الثالثة رانيا..

ـ ولا كلمة ولا صوت ولو أي حاجة باظت مش راجعة الاستوديو تاني مهما حصل..

ـ حيلك حيلك يا نجمة.. انتي هاتعملي الشويتين بتوعك عليا أنا كمان؟ كله تمام يا برنسيسة والحلقة جامدة طحن..

ـ اوف... مش مصدقة إننا خلصنا، أنا قربت أسيب البلاتوه وأنكش شعري وأطلع أجري..

تلاقت الأيادي في صفعة صبيانية من الصديقتين وهما يدخلان في نوبة ضحك عالية لفتت الأنظار..

ـ عيب عليكي يا وحش الشاشة الصغيرة ده أنا غادة والأجر علي الله.

ـ طيب يا ست غادة سبيلبيرج أنا هامشي وانتي خليكي في إبداعاتك واغرقي فيها براحتك..

ـ انتي برضو مصرة تسافري النهارده؟

ردت فرح بصوت محمل بالتعب والملل وهي تغلق عيناها ببطء:

ـ معنديش استعداد أفضل ثانية واحدة هنا..البحر وحشني جداااا... محتاجة شهر علي الأقل أمشي حافية علي الرملة وأنام تحت الشمسية وأبحلق في السما.. ريحة اليود وحشتني يا خلق هو..

ـ طيب يا ستي تروحي وترجعي بالسلامة وما تنسيش تبوسيلي طنط وان شاء الله أشوفها الصيف الجاي بقي..

ـ انتي برضو مش جاية وهاتفضلي هنا؟؟

ـ يا بنتي إحنا ناس شقيانة مش نجوم زيك، لسه قدامي أسبوع في (المونتاج) وأكتر منهم مع أستاذ خالد في تجهيز حلقات الدورة الجديدة للبرنامج..

رغم ظهور الإرهاق بوضوح علي وجه فرح ورغبتها الشديدة في مغادرة المكان والبعد عن ضوضاء عمال الديكور والإضاءة وتعالي أصواتهم بشكل عشوائي مزعج إلا إنها استسلمت لغادة وكأنها قد نسيت أمر الدورة الجديدة للبرنامج..

ـ ويا ترى اتفقتوا علي إيه في الدورة الجديدة؟

ـ أول حاجة البرنامج زي ما هو اسمه (حلم) ومدته نص ساعة والجديد بقي في الدورة الجديدة إن مفيش ولا ضيف من بتوع السياسة أو المسئولين..

ـ يا سلام لا سياسة ولا مسئولين؟!!! هتجيبوا مين بقى إن شاء الله؟؟ اوعي تقولي فنانين ومطربين والكلام الفاضي ده، أنا معنديش استعداد أتحمل سخافتهم ودلعهم البايخ..

انطلقت ضحكة عالية من غادة وهي تشغل سيجارة (كابتن بلاك)

ـ لا اطمني مفيش فنانين، أسخف منهم بكتير..

ـ أسخف منهم؟؟ عروستي؟

ـ المرة دى أدباء وشعراء ومفكرين..

ـ واااااو.

قالتها فرح وهي تلوح بيدها ساخرة:

ـ كدة يبقي أعمل حسابي من دلوقتي وأجهز دوا الضغط.

نفثت غادة دخان سيجارتها البنية الرفيعة وهي تضحك:

ـ وغلاوتك ما ينفع معاهم غير سيجارتين حشيش ومن صنف عالي..

وضعت فرح أصابعها الرقيقة أمام أسنانها البيضاء اللامعة وهي تضحك بقوة:

ـ والله عندك حق، أوعدك أفكر في الموضوع..

تخلت غادة نوعا عن سخريتها وضحكاتها العالية وهي تقذف بسيجارتها بعيدا..

ـ طب يا فنانة اعملي حسابك هابعتلك (اسكريبت) الحلقة الأولى بعد يومين تقريه وتراجعي عليه وأول ما ترجعي نشوط أول حلقة..

ـ ومين يا ترى سعيد الحظ اللي هايتحفنا بعقده النفسية أول حلقة؟

ـ لسة مش عارفة بالظبط بس غالبا هايكون الواد ده اللي كاتب رواية (وهم النسيان)..

تجمدت ملامح فرح فجأة وفتحت فمها الرقيق من وقع الصدمة..

ـ بتقولي مين؟؟؟.. انتي قصدك (أدهم جمال)؟؟؟

أومأت غادة برأسها موافقة وهي تعقد حاجبيها اندهاشا لردة فعل فرح وظهور التوتر علي وجهها

ـ أيوه.. هو أدهم جمال، إنتي تعرفيه ولا إيه؟؟

تناثرت الأحرف من فم فرح بلا كلمة واضحة قبل أن تجيب:

ـ آآه.. لالالا.... لا لا ماعرفوش بس أسمع عنه.. هو ضروري نسجل معاه؟ أقصد يعني ما ينفعش نغيره؟

ـ مالك يا بنتي انتي اتضايقتي كدة ليه؟!! انتي عارفة ومش عايزة تقوليلي

لم تجب فرح بل نظرت بعيدا وهي تخرج تنهيدة مسموعة..

ـ يبقي تعرفيه، وعموما أدهم يبقي صاحب مستر خالد يعني جاي يسجل من غير نقاش، روقي بقي وأهو شغل زيه زي غيره..

التقطت فرح حقيبتها بعصبية وهي تهم بالخروج:

ـ طيب طيب... أنا مش قادرة أقعد أكتر من كده.. سلام وابقي كلميني لما تتفقوا علي كل حاجة..

لم تترك فرح فرصة لغادة للتعليق أو حتى الوداع وانطلقت نحو سيارتها وهي لا تفكر إلا في شيء واحد فقط.. أدهم جمال!! وكأن الزمن توقف لأبعد من عشر سنوات مضت..

هل عاد الماضي أم أنه أبدا لم يغادر؟؟

عبرت فرح بوابات الطريق الصحراوي في طريقها إلى إسكندرية لقضاء أسبوع الراحة والتواصل الأسري كما اعتادت كلما واتتها فرصة للهروب من صخب وسخافات عملها كمقدمة برامج منذ سنوات.. تدرك فرح تماما أن ذهابها للإسكندرية ليس لزيارة والدتها التي تعيش هناك وحيدة بعد وفاة والدها في المقام الأول إنما لحاجة فرح المستمرة للجلوس أمام البحر وحيدة كما اعتادت منذ سنوات..

لم تشعر فرح بساعات السفر فقد كان عقلها في حالة فوضي عارمة يفكر في إخبار غادة بخصوص ضيف البرنامج القادم، أفكار متضاربة متداخلة لا توصلها لشيء سوى مرور الوقت حتى وصلت منزلهم في حي سموحة العتيق لتنفض تلك الأفكار من رأسها في أحضان الاشتياق التي قابلتها بها والدتها..

أنهت فرح وليمة والدتها الشهية وارتمت في أحضان غرفتها الصغيرة وراحت في سبات عميق حتى صباح اليوم التالي.. فاستيقظت وهى تشعر براحة شديدة بعد أن أخذت قسطا وفيرا من النوم بالأمس وتحركت بلهفة بعد أن تناولت إفطارها مع والدتها السعيدة بوجودها نحو مكانها المفضل فوق ظهر هذا الكوكب علي شاطئ البحر..

هناك في مكانها المعتاد تجلس فرح تخفي ملامحها الشهيرة خلف نظارتها هروبا من تطفل من يتعرف عليها تنظر إلى موج البحر أو لا تنظر فقد يكفيها صوت تعاقبه وارتطامه بتلك الصخرة العتيقة وتطاير الرزاز ليسكن وجها من حين لآخر..

استطاعت التكنولوجيا وتطورها السريع في صنع صديق جديد يسامر فرح في جلساتها المطولة عن طريق (الاى باد) الذي يحمل صوت (سميرة سعيد) مطربتها المفضلة وتقريبا الوحيدة..

انطلق صوت سميرة سعيد يتخلل آذان فرح يعيدها لأكثر من خمسة عشر عاما من الذكريات:

يا حلمي البديع.... ولون الربيع

يا حس الأغاني.... وأنس المكان

واحشني بصحيح... وشوقي الصريح
غاصبني أقولك..... بحبك كمان

***

لم تتصور فرح أنها في يوما ما ستدير حوارا مع أدهم هذا الحبيب الضائع من قلبها وعمرها من سنوات..

قصة حب استمرت لخمس سنوات بينها وبين أدهم شاعر الكلية كما كانوا يطلقون عليه في كلية (إعلام) فقد وقعت في حبه من اللحظة الأولى التي رأته فيها شابا وسيما لبقا يستطيع لفت الأنظار وشد الانتباه بلا مجهود، تحمل عيناه آلاف الأحرف وملايين الكلمات للغة جديدة لا يتحدثها سوى عينيه ولا يفهمها سوي عينيها..

كان اللقاء الأول بلا كلام فقد تعثرت قدميها وهي تقف علي سلم الكلية وهي تمزح مع أصدقائها وتؤدي مشهدا تمثيليا تقلد فيه احدي المذيعات الشهيرات آنذاك، قبل أن يختل توازنها وتسقط للخلف لتجد نفسها بين ذراعي أدهم الذي كان يقف خلفها لينقذها من السقوط أرضا ويتركها بلا رحمة تسقط في عشقه مباشرة دون الاهتمام بكل قوانين الجاذبية لنيوتن!!

لم تستطع فرح الكلام فلم تكن تعرف بعد قواعد النحو والصرف في لغة عينيه فقط اكتفت بالإبحار في عالمه الكبير وهي تسمع صوته قادما من عوالم ما وراء الطبيعة الساحرة..

ـ انتي كويسة؟؟

ـ.....

ـ ابقي خدي بالك السلم ده ياما ناس وقعوا من عليه..

لم ترد فرح من خجلها فقد أومأت برأسها وهى تهندم ملابسها بتوتر قبل أن ترى أدهم مغادرا دون أن تجيبه بشيء مطلقا..

مر هذا اليوم وفرح تفكر في أدهم طوال الوقت تتفحص ملامحه في ذاكرتها حتى قابلته في اليوم التالي وبعد أن تجاوزت رعشة باردة انتابت أطرافها تقدمت نحو لتشكره علي موقفه أمس..

ـ اااا... لو سمحت.. لو سمحت..

ـ أهلا، إزيك عاملة إيه؟

ـ تمام الحمد لله، أنا بدور عليك من بدري علشان أشكرك..

ـ تشكريني علي إيه؟!! أنا معملتش حاجة.. المهم إن انتي بخير

ـ تمام أنا كويسة بس بجد ميرسي جدا إنك لحقتني إمبارح قبل ما أقع وأبقى نكتة الكلية لعشر سنين قدام..

ـ هههههههه مش للدرجادي يعني..

ـ عموما أنا متشكرة بجد يااا....

ـ أدهم.. أدهم جمال..

ـ وأنا فرح، بس إحنا ازاى ما اتقابلناش قبل كده؟

ـ يعني، يمكن علشان أنا مش باجي غير في المحاضرات المهمة.. عموما أدينا اتعرفنا وأنا تحت أمرك في أي وقت..

ـ تمام يا أدهم وبجد ميرسي.

انتهي لقاؤهما الأول لتبدأ قصة كما بدأت بلا ترتيب..

انتهت بلا ترتيب..

***

آه لو كنت ملكي.... آه لو كنت ليا

كنت هاتمشي تحكي.. للي يقابلوك عليا

مرت سنوات الجامعة كأغنية شبابية حديثة ممتعة بقدر قصرها..

هذا الحب الأفلاطوني الرقيق بين أحاديث الأحلام والأمنيات ونقد المعوقات والصعوبات، بين رغبة تجري في العروق لاكتمال الحلم ورفض مرضي لاستنتاج نهايته المحزنة المتوقعة علي كل حال، هكذا هي قصص حب هذا الزمن في تلك البقعة السجينة بين بحر أبيض اللون بلون الحلم وبحر أحمر ضيق الصدر يضع علي رأسه (القرون) ولا يخجل منهما علي سطح أي خريطة جغرافية!!

وكمساحة الوادي في قلب صحراء تلك البقعة المكلومة كانت لحظات بل أيام وسنوات الحب بين فرح وأدهم تشبهها تماما، تلاشت الفرحة وتوارت خلف المعايير الاجتماعية والفروق الطبقية التي وقفت سدا عاليا منيعا في أن يفكر أدهم مجرد تفكير في صنع محاولة واحدة تكون شماعة الفشل وضياع فرح من يده، إحساسه بالعجز وقلة الحيلة ورقة الحال حالت بين شجاعته وبين نداءات فرح المستمرة بأن يتقدم

لها وهي ستدعمه عند أسرتها الصغيرة التي لن تصمد أمام رغبة ابنتهم الوحيدة ولكنة سيف الفقر المنزوع الرحمة المسلط علي رقبة أدهم ابن الأسرة الفقيرة الحال الكثيرة العدد..

هل انهزم أدهم أمام فقره وشعور النقص الذي تجرعه مع أول جرعة تطعيم في المستشفي الحكومي المتهالك أم شعوره الداخلي أن فرح مجرد حلم يجلب لصاحبه السعادة طول ساعات النوم.. يشعر كأنها كانت لحظات يستيقظ بعدها علي واقعة المرير يتثاءب مرة أو اثنتين كافيتين تماما لانتهاء متعة الحلم ولذته علي أمل أن يتكرر الحلم في ليلة قادمة ولكنه دوما عرض واحد فقط بدون جمهور.. لا يتكرر..

أدهم لم يخض أي معركة لم يرتدِ حتى ثوب المحاربين أو الثوار، هزيمة مرة مرار الصبر المملح تلك التيَ تلحق بعاشق لم ترَ عينه أبدا ساحة المعركة..

هل كانت تعنيهم سميرة سعيد عندما غنت:

لا بنا حلم ولا بنا وعد.... مجرد اتنين وعرفوا بعض

أنا مقصدش أخونك ولا أجرحك.. مفيش بإيدى حاجة تريحك

فرح كانت عاشقة رومانية قديمة تهمس، تتنهد، تترنم بعشق أدهم ليل نهار كقيثارة في يد عازفة فرعونية في معبد إله العشق والغرام، لم تسأل أبدا ماذا بعد؟

فقط تعشق في صمت تنتظر أحداث الحلم الجميل ولا تحاول التدخل أبدا في دراما الأحلام الفنتازية..

فقدت فرح قصة الحب فجأة بلا ترتيب كما بدأت بلا ترتيب عندما خرجت الكلمات متقطعة مرتعشة من بين شفتي أدهم معلنا مشهد النهاية العبثي في المسرح الروماني القديم..

فقط قالها: لا أملك... لا أستطيع..

***

بين متابعة موجات البحر المتلاحقة وأغاني سميرة سعيد مضي أسبوع الراحة والإجازة لفرح كأنه بضع ساعات، لا لا ليس سريعا هكذا بل كان بطيئا حزينا من فرط تفكيرها في أدهم وفي لقائه المرتقب، كيف ستنظر في عينيه؟

كيف ستجلس أمامه وتحدثه وتعلو شفتاها ابتسامة المذيعة المصطنعة؟

هل يمكنها تصنع اللامبالاة؟ أم ستفضحها لهفة عينيها؟

هل هي سعيدة بلقائه؟ أم لا؟!!

وكيف سيكون رد فعله تجاهها وهو يعلم علم اليقين أنها من ستحاوره؟

كم هو أناني عاش تلك السنوات يراها ويتابعها وهي لا تعرف سوي أخباره وتقرأ قصائده وأعماله والتي طالما اعتقدت أنها كتبت لها.. لا ليس أنانيا فقط إنه لا يحبها، قطعا لا يحبها وإلا لماذا لم يحاول لقاءها طوال تلك السنوات وقد تغير حاله وأصبح من نجوم المجتمع الناجحين وهو يعلم أنها لم ترتبط بعده..

ليته ما عاد..

ليته ما ظهر مجددا يحرك ماءها الراكد من سنوات.. لماذا الآن؟ لماذا قرر أن ينبش في قبر حبهما القديم؟

هل قرر الآن أن يعود؟ أم أنه جاء ليقول هاأنذا أصبحت كبيرا ناجحا نجما لامعا؟

أم تغيرت مشاعره بتغير حاله ولم يعد يفكر فيها كما هو حالها؟..

لم تنته الأفكار أو تتوقف الاحتمالات في رأس فرح حتى جاء يوم تسجيل الحلقة ولم يعد يفصل بينها وبين لقائه سوى دقائق وتراه بل تسمعه.. وتكلمه..

***

«أعزائي المشاهدين،

أهلا ومرحبا بكم في حلقة جديدة من برنامجكم (حلم)..

ضيفي وضيفكم اليوم هو الكاتب والشاعر أدهم جمال..

أدهم جمال من الكتاب الشبان الذي ذاع صيتهم في الآونة الأخيرة، واستطاعت أعماله المتلاحقة صنع شهرة واسعة وضعته في مصاف كبار الكتاب.. معا نتعرف عن قرب على أفكاره وأحلامه وأعماله القديمة والجديدة.. ولكن.. بعد الفاصل»..

تسارعت ضربات قلب فرح حتى أنها شكت أن من حولها سمعوها وهي تقاوم شعورها بالدوران قبل أن يظهر أدهم أمامها عابرا من باب البلاتوه..

إنه أدهم لم يتغير عما كان مازال رفيعا طويلا تسبقه عيناه بالحديث وابتسامته بالسلام، فقط بضع شعيرات بيضاء في جانبي رأسه لم تخطئها أعين أنثي عاشقة مثل فرح..

اقترب أدهم متعثرا في نظرات فرح المشتتة بين لهفة ودهشة ورغبة في إظهار عدم الاهتمام، امتدت يده تحمل حرارة شوق سنوات من الفراق عانقت أنامل فرح ليصبحا مثل فوهة بركان حديث الانفجار..

صاحت غادة مخرجة البرنامج في أذن فرح:

ـ ستاند باي.... ٥ ٤ ٣ ٢ ١

أعزائي المشاهدين معنا ومعكم الكاتب الشاب الأستاذ أدهم جمال..

ـ أستاذ أدهم، في البداية نحب أن نتعرف علي الجوانب التي يجهلها المشاهد عن كاتب نقلت كلماته علي ألسنة الكثير من المطربين المشاعر المختلفة وحالات العشق بين العشاق؟

ـ بصراحة مش دايما بتبقي كلمات الأغنية أيا كانت هي كلمات علي لساني وكاتبها لحد بعينه (رغم أنه كتير بيحصل) لكن الاحترافية بتخليني قادر أتخيل موقف معين وأتخيل شكل مشاعر الشخص اللي في الموقف ده، والحمد لله أهو بحاول علي قد ما أقدر أنقلها وأعبر عنها..

ـ أفهم من كده إن أدهم جمال صاحب تجربة عاطفية وعبر عنها في كلماته؟

ـ أكيد كل واحد فينا عنده تجربة ويمكن أكتر..

ـ وحضرتك؟؟

ـ مالي؟!!

ـ أقصد إنت صاحب تجربة ولا أكتر؟

صاحت غادة في أذن فرح عبر الايربيس: فرح.. اهدي علي الراجل شوية، بلاش تحرجيه..

امتدت يد فرح لا إراديا تحرك سماعة الايربيس وهي تحاول استعادة توازنها مرة أخرى قبل أن يأتيها صوت أدهم هادئا:

ـ مش عارف إذا كان المشاهد يهمه يعرف حاجة زي دي!! بس أنا حبيت مرة واحدة في حياتي وماعتقدش إني ممكن أحب حد تاني..

صمتت فرح ولم تجب أو توجه سؤالا لضيفها، فقط تحدق في عينيه تكلمه تعاتبه فقط بالنظرات.. بلغتهما القديمة بحروفهما المشفرة الموجودة فقط في قاموس أعينهم..

عادت غادة لصراخها من جديد في أذن فرح التي لم تعد تسمع أو ترى غير أدهم.. أدهم فقط..

ـ فرح... أنا ما حبيتش غير مرة واحدة وبكل قلبي اللي مبقاش باقي منه حاجة لحد تاني..

ـ كلامك في الأغاني كان ليها يا أدهم؟

ـ كل كلمة لهفة كانت ليها.. كل كلمة شوق كانت علشانها..

وليه ما رجعتش؟ ليه ما حاولتش تقولها كلامك بنفسك؟ إنت مفكرتش هي كانت محتجالك قد إيه؟ استنتك قد ايه؟ كام مرة حلمت

بيك راجعلها تنسيها سنين بعدك.. سنين ما اتحسبتش غير في البطاقة الشخصية؟!

***

لم تعد فرح أو أدهم يشعران بمن حولهما.. توقفت الكاميرات عن التسجيل، توقفت غادة عن الصياح، توقف الجميع يشاهد دموعا تتلألأ في عيني أدهم وتتساقط علي وجنتيى فرح:

ـ فرح أنا عمرى ما نسيتك، عمرك ما فارقتيني.. كنت دايما بشوفك وبسمعك وكمان بكلمك، بعتذر جايز.. بتأسفلك ممكن، بس كل ثانية ولحظة كنت بقولك وحشتيني..

أجهشت فرح بالبكاء وهي تدفن وجهها في كفيها قبل أن يتقدم منها أدهم جالسا أمامها يمسك يدها بيده وقلبه يمسح دموعها بدموعه..

ـ حرام عليك يا أدهم.. ليه سيبتني لوحدي طول الفترة اللي فاتت؟ كنت دايما محتجالك، كنت محتاجة حضنك لما بابا مات استنيتك كتير.... كتير قوي يا أدهم..

ـ سامحيني، اغفريلي ذنب مش ذنبي خرجت من الجنة بسببه.. بحبك يا فرح... بحبك ومش هاسيبك لحظة واحدة تاني.. سامحيني يا كل نفسي يا كل عمري..

التقت أيديهما في عناق لهفة وأشواق سنوات مضت وكأنها لم تكن..

عادت فرح.. لحلم فرح..

عندها وجهت غادة كلامها لمن حولهم:

ـ احنا فركش يا جماعة.... الحلقة دى مش للإذاعة..

***

يا حلمي الوديع..... ونور الربيع

يا حس الأغاني..... وأنس المكان

واحشني بصحيح وشوقي الصريح

غاصبني أقولك..... بحبك كمان

دموع الرجال تخاصم الجنائز

في قلب الريف في الثمانينيات قبل اكتمال دخول المرافق كالماء وبعد دخول الكهرباء الموسمية بقليل حضرت بعقل وقلب طفل صغير أول جنازة، كان المشهد مفزعا إمام المسجد.. الرجال واقفون بأعداد كبيرة باتجاه الباب منتظرين خروج النعش وعلي الجانب توجد كتلة من الملابس السوداء تصدر الصراخ والبكاء المفزع من أفواه النساء..

كنت مرعوبا لا أستوعب ما يحدث ومع ذلك وقفت أشاهد وصوت دقات قلبي أعلى من كل الأصوات..

خرج النعش والميت مغطي ببطانية (يشترط تكون جديدة) ولم أرَ منه سوى رباط الكفن الأبيض عند قدميه.. تحرك المشيعون في اتجاه المقابر في الشارع الضيق وصوت النساء وصل لأعلى مستوياته وأصبح العويل والنواح أسرع وبجمل أقصر لكن أغلبهن كان يقول: مع السلامة..

طبق نحاسي أصفر في منتصفه شيء يشبه الطبق الذي يحمله بائع العرقسوس وقطع من البلح في ماء يبدو مسكرا لأتناول أول (طاسة خضة) في حياتي بعد مشهد الجنازة الأول..

سنة أو سنتان وكانت جنازة أخرى لكنها هذه المرة من منزلنا..

يا فزعي وسوء حظي سأري مجددا هذا المشهد..

لا.. لا... قررت الهروب..

سنوات مضت أتجنب حضور الجنائز.. أهاب المسجد المجاور لنا الذي تخرج منه كل النعوش، حتى قطع صمت الليل فجأة صراخ سيدة تبدو أنها تعدو في الشارع وهي تصرخ بمرارة:

جاي م الغربة ع التربة

ملحقتش تتهني يا ضنايا

مات جارنا الشاب المغترب الذي لم أره أبدا من قبل.. مات قبل أن يعود ليتزوج.. قبل أن تراه امة بعد سنوات الغربة..

بالقطع لا أملك قلبا يتحمل دفن الشباب المغتربين في الليل... لم أذهب للجنازة..

الآن أصبحت أكبر عمرا ولم يعد بمقدوري تجنب الجنائز فمن العار في الريف اعتزالها..

جنازة.. اثنتان.. ثلاث... عشر..

لماذا لا يبكي الرجال؟ لماذا لا أسمع لهم صراخا؟

الرجال لا يبكون في الجنائز..

فقط عند دخول الجثمان للقبر مسموح بالبكاء بصوت ولا مانع من الوداع

مع السلامة يابا.... مع السلامة يامه..

من يبكي وينهار تلومه الأعين وتحذر الألسن من الاستمرار في مظاهر النساء!!

امسك نفسك أومال... خليك راجل..

هو في راجل بيعيط؟.. متعملش زي الحريم..

أحفظ الآن القواعد جيدا، الرجل لا يبكي أباه أو أمه أو أخاه أو ابنه أو ابنته أو زوجته..

الرجل لا يبكي في الجنازة ..

لا يصرخ لوعة الفراق أو صدمة الخبر..

فقط الدموع القليلة وهو مقتضب الوجه..

***

سنة ١٩٩٤ ..

مات جدي عبد الستار..

جدي عبد الستار زوج خالة والدي التي توفيت منذ عام..

سنتحرك الآن للبلدة المجاورة بلدة جدي عبد الستار لنحضر الجنازة،

أراجع مع نفسي القواعد، لا بكاء لا نواح لا رعشة في يدي عند تلقي العزاء

الآن أنا جاهز أجلس في السيارة أطرد من رأسي صورته وصوته..

أنظر يمينا للماء راكدا بلا حياة أرى ابتسامته علي وجهه الأسمر الممتلئ بالتجاعيد وهو يقبلني ويعطيني نقوداً دائماً جديدة لامعة..

أطرد صورته وأنظر يسارا أمارس هواية عد الأشجار ١، ٢، ٣.....٥٦

مازالت صورته تتخللي وصوته يقتحم عقلي.. أسمع اسمي بحروفه القادمة من أعماقه وهو يناديني ويمازحني..

لماذا الآن أتذكر جدتي وهي قادمة معه تزورنا؟

لماذا أشعر الآن بفقدانها؟ لماذا أشتاق لبكائها ألان ولم أذرف دمعة يوم وفاتها؟

وصلت السيارات الحزينة واختلطت الأقدام ومنزل الجد الطيب يبدو مظلما مقفرا لا أتبين ملامحه من شدة العتمة والظلام قبل خروج النعش ليلحق صلاة العصر..

أنا رجل لم تسقط دموعي ولم ارتعش وأيضا لم أتكلم وكأني خلقت بدون لسان..

هاهي المقابر تنتظرنا وتنظر إلينا نقترب في خيط طويل يعلوه الغبار والهمهمات..

وحدوه... لا إله إلا الله..

توقفت غصباً عني لم تطاوعني قدمي أن أقترب أكثر من هذا.. جسمي نمّل وارتعشت.. وسخنت جدا لدرجة أني شعرت ببرودة شديدة، رأسي يميل.. يصرخ يريد البكاء..

سامحني يا جدي لا أستطيع بكائك، ستنال منى الأعين..

لم أعد أتحمل الدموع بعيني.. أصبحت أثقل من رأسي تميله للأمام والخلف..

هرولت غير مبال باتجاه الحقول أبكي بحرقة جدي الطيب..

أبكي ندمى أني حبست دموعي..

بكيته ومرت كل صورة في راسي..

مسحت قلبي بصوره وصوته وضحكه وكأني أنقش ذكرياته داخل رأسي حتى لا تغادر عقلي يوما..

عدت لسرادق العزاء وتذكرت أني بكيت بعيداً عن الجنازة،

بكيت وحيدا لم يرني أحد..

عدت مثل الرجال لا أبكي في الجنائز..

ضحكة ميت

بخطوات سريعة مهرولة اقترب الدكتور عادل طبيب الأورام الشاب من حجرة العناية الفائقة، وعشرات الأسئلة تتزاحم وتتعارك داخل رأسه منذ أن سمع قصة المريض الجديد علي لسان فردوس أكبر وأقدم وأمهر ممرضات القسم وهي تقص عليه باستغراب مطلق مغلف بشيء من الرهبة والكثير من الخوف قصة هذا المريض القادم لهم منذ ليلة واحدة من إحدى المستشفيات الأهلية ليسكن غرفة العناية الفائقة الأحدث علي الإطلاق الخاصة بمن هم في مثل حالته في نهاية الصراع الحتمي بين هذا المرض الخبيث القاتل وبين ضحاياه..

قالت وهي تحاول الاتزانٍ والسيطرة علٍي رغبة عارمة في البكاء إن هذاٍ الرجل ذا الخمسين عاما يسقط أرضاً من شدة نوبات الألم متألما باكياً ومع ذلك يضحك وتظهر فرحته جلية لا يخفيها شحوب وجهه ولا تلك الدموع الطائشة المتساقطة من عينيه وكأنه لا يشعر بها، يقبل الدواء مرة ويرفضه عشرات المرات، يرفض الزيارات كلها بلا استثناء ويمسك طوال الوقت بعلبة قطيفة صغيرة لا تفارقه أبدا..

لم تكن سنوات عمل عادل كثيرة لتحمل بين طياتها حالات مماثلة ولكنها لم تكن بالصغر الذي لا يجعله يسمع ولو مرة عن آخرين استقبلوا ضربات وطعنات هذا القاتل بفرحة أو حتى بقليل من الصبر والجلد، وقف عادل لأكثر من ثلاث دقائق يفحص هذا الرجل علي بعد مترين من فراشه وهو يمسك بيده سجله المرضي يراجع حالته، لا

شك أن أيامه أصبحت معدودة للغاية ولا شك أيضا أنه الآن في ذروة تملك المرض منه وفرض سطوته عليه..

يبدو علي الرجل أنه من هؤلاء الرجال أصحاب الياقات البيضاء الذي ندر وجودهم الآن، لم يخفِ شحوبه وتبدل لون وجهه وسامة واضحة وبياض بشرته مع لون شَعره الأسود يجعله يشبه نجوم السينما في الستينيات، لم يدم تطلع عادل كثيراً فقد تحرك المريض أو نبيل كما دون اسمه في ملفه الخاص وخرجت من بين شفتيه آهة واهنة هو يبذل مجهودا كبيرا ليرفع أجفانه ويري عينيه المحمرة من شدة التعب..

عادل: صباح الخير مش أحسن دلوقتي؟

لم يجبه نبيل فقط لوي شفتيه قليلا في محاولة بائسة لرسم ابتسامة مودة علي وجهه..

عادل: الممرضة بتشتكي منك يا أستاذ نبيل انك بترفض تاخد العلاج، وده بيصعب علينا مهمتنا وبيدي فرصة للمرض يبقي أقوى مننا..

أشار له نبيل بأيدٍ مرتعشة ليجلس بالقرب منه..

نبيل: سيبه..

عادل: أسيب مين؟

نبيل: سيبه يخلص مهمته، سيبنا لبعض إحنا متفقين علي كل حاجة..

عادل: أنا مش فاهم قصدك..

نبيل: يابني خلاص خليني أمشي بقي أنا تعبت من الانتظار..

عادل: الأعمار بيد الله يا أستاذ نبيل، ولازم نعمل اللي علينا ومفيش يأس من مرض وياما حالـ.....

قاطعه نبيل وهو يشير بيده مفزوعاً ما جعله يدخل في نوبة سعال جافة قوية نبيل: أنا مش مضايق ومش خايف من الموت، بالعكس أنا بتمناه من عشر سنين..

عادل: وده اللي مخليك بتضحك لما النوبة بتجيلك ده يبقي انتحار يا أستاذ نبيل..

نبيل: انتحار؟!!! وأنا يابني لو عندي شجاعة أنتحر أو إيماني ضعيف كنت استنيت عشر سنين؟

عادل: أومال مالك؟ رافض العلاج ليه وبتفرح وتضحك كل ما تحس بيه بيفترسك ليه؟

نبيل: وحشتني.. عشر سنين غياب، عشر سنين وأنا مستني اليوم ده بفارغ الصبر..

عادل: تقصد مين؟

نبيل: متشغلش بالك، قوم يا بني شوف اللي وراك..

عادل: معنديش حاجة غيرك ومش هاسيبك غير لما توعدني إنك تلتزم بالدوا وتبطل ترفضه..

نبيل: يابني ما تتعبنيش، أنا مش حمل مناهدة..

عادل: طب فهمني..

نبيل: من عشر سنين مراتي جالها نفس المرض بس كان في الدم، أسبوعين بالظبط وكانت سابتني ملحقتش أعمل حاجة أو بمعني أصح معرفتش أعمل حاجة، تعبت ومرضت ودبلت ومشيت وأنا حتي مكنتش لسه استوعبت إيه اللي حصل، غريبة قوي الدنيا دي لا بتعرفنا امتي هاتفرحنا ولا بتعرفنا امتي هتبكينا..

عادل : الله يرحمها ويصبرك، بس ده مش معناه إنك تسيب نفسك.. بلاش علشان تعيش وتحافظ علي حياتك، علي الأقل علشان تخفف الألم علي نفسك..

نبيل: تصدق كنت بخاف أدعيلها بطولة العمر لتعيش أكتر وهي بتتعذب من المرض.. كنت بدعي ربنا يهون تعبها وأفتكر كلام أمي ليا وأنا صغير لما كانت تشوفني تعبان تاخدني في حضنها وتقولي: بعد الشر عليك يا ضنايا ياريتني كنت أنا.. أنا كمان كنت باخدها في حضني وأقولها: ياريتني كنت أنا لكن خلاص مكنتش سمعاني واهي ماتت بس قبل ما تموت أنا مت قبلها ألف مرة..

عادل: للدرجة دي كنتوا بتحبوا بعض؟!!

نبيل: مش حب، دي حياة.. كنا بنلعب سوا في حوش بيتنا وإحنا صغيرين وكبرنا سوا وحبينا سوا واتجوزنا وعشنا وفرحنا وضحكنا وحلمنا سوا.. حتي لما ربنا ما أرادش لينا بأولاد كل واحد فينا كان لاقي في التاني الونس والكفاية.. هي اصلا كانت بنتي وأنا كنت ابنها والله مكنش ناقصنا حاجة وبنعرف نستغني عن كل حاجة.. إنت عارف معني إني أعيش من غيرها ايه؟ إنت عارف العشر سنين عدوا

عليا ازاي؟ إنت عارف إن دي كانت أول مرة تسيبني وتتأخر قوي كده عليا بس أقولك الحقيقة أنا اللي اتأخرت عليها... اتأخرت قوي بس ربنا دايما رحيم وأهو استجاب لدعايا وهايجمعنا من تاني سوا..

قاوم عادل باستماتة رغبته في البكاء وهو يربت علي يد نبيل ويخرج دون أن ينبس بكلمة واحدة.. فقط تمتم بصمت في أعماقه: (ربنا يجمعكوا سوا)..

وصية

نظر في عينيها وأعاد عليها ما يحفظه من مفردات قاموسه اللغوي الذي لم يصل أبدا لتوصيف مشاعره..

قاوم دموعه وحافظ على ما عاهدته من رجولة وهو يداعب أناملها ويوصيها أن تحيى ذكراه بعد رحيله بقطعة موسيقية يجدها تعبر عنه:

ـ ابكينى كلما أردتِ وأنتِ تسمعين لحني وترقصين

استعيدي جسارة عشقي بين نغمات لحني الصاخب الحزين

اذكريني دوما لحناً قويا يبعث فيكِ الصبر ويعزيني

أوصيكِ ألا تنسيني.... فلولا نفاد العمر... لجلست أمام شرفة عينيكِ ملايين السنين

اختلطت دموعها بحبيبات العرق فوق جبينه وهى تطبع قبلة فوق شفتيه البيضاء المرتعشة..

وهل تظن أن ما يبقي منى بعد رحيلك جسد له آذان كي يسمع؟

قلب كي يشعر؟

جسد يمكنه الرقص حتى وإن كان حزينا؟

سترحل وتأخذ معك الحياة من قلبي..

أعيش بدونك كمذياع قديم متهالك يعيد أحاديثك وكلماتك..

تذكر يوما بعيدا عندما تعثرت قدماي وحملتني بذراعيك وأنت تبكى ألمي

يومها أسمعتني تلك الجملة:

ـ ليتني أُصبت بدلا منك.... أتألم عنك بجراحك..

كنت أستند على كتفيك... أحتضن أصابعك والطبيب يضمد جرح قدمي

كانت دموع حزنك تنساب من عينيك ألتقطها بعيني..

نعم يا حبيبي كنت تبكى بدلا منى..

كنت تتألم أكثر منى..

أوصيك يا حبيبي إن كان لا مفر من رحيلك..

انتظرني في السماء كما عهدتك بابتسامتك الحانية..

احكي عنى للملائكة..

احكي قصة عشقنا لمن سبقونا..

سأزور بيتك الجديد كل صباح..

أوزع الحلوى على الأطفال والشيوخ والنساء الباكيات..

أحكى لك أيامي وأنا اضحك عندما تشتاط غيظا لغيرتك على..

أسمعك تفاصيل عمري القصير بعدك..

أناديك كما أحببت دوما أن أناديك..

أعاهدك أنى لن أتحمل التأخر عليك..

سألحق بك سريعا حتى أنام بين ذراعيك كما أحب..

أسمع لحنك معك.... نرقص معا..

نضحك ونضحك ونضحك..

تحيط بنا الملائكة وتشملنا السعادة..

ابتسم وارتعشت شفتاه وهو ينطقها لآخر مرة

قبل أن تسافر روحه وتسبقها..

ملابس جديدة بيضاء

تجاوزت درجة الحرارة الخمسين بقليل وتوسطت الشمس السماء وبالرغم من ذلك يبدو الأفق معتما وكأن الضباب يحيط بكل مكان، الضوضاء تسد الآذان ولا يمكنه تمييز كلمة واحدة.. فقط أصوات عالية متداخلة تبدو وكأنها نداءات وأحيانا كصوت استغاثة أو ربما كلمات بلغات لا يعلمها، الكل يقف من حوله في حالة تأهب قصوى..

لا يعرف الكثيرين ولكنه يري وجوها يألفها جيدا، لماذا الجميع هنا ولماذا لا أحد يعيره أي انتباه؟! ينطلق صوت صفارة قوى يشق رأسه، الكل يهرول محموما بعشوائية صادمة، يزيح العرق من فوق جبينه ويهرول مثلهم لا يعلم لماذا ولكنه يتحرك بسرعة شديدة ورغبة ملحة أن يسبقهم حتى أنه يقفز أحيانا، تجرح قدمه قطعة حديدية مدببة تجعله يدرك أنه عارى القدمين، يكتم الألم ويستمر في العدو بقوة أكبر، لا يعلم لماذا وما هي نقطه النهاية لكنه يعدو ويعدو ويسارع ولا يأبه لتلك الأجساد التي يرتطم بها بين الحين والآخر..

تقع عينه عليها تعدو بينهم وتنظر إليه تناديه بأعينها ويكسو ملامحها الخوف والفزع، يستميت من أجل العدو إلي الأمام وهو يميل باتجاهها، يريد الوصل إليها ويحافظ على رغبته في التقدم في نفس الوقت، يكاد يقترب منها حتى يصطدم بهذا الرجل صاحب الجسد الضخم، يقع أرضا وترتطم رأسه ببركه مليئة بالماء القذر، يشعر بعشرات الأقدام تعبر من فوقه وأحيانا تدهسه، يشعر بالألم في كل جسده، ويقـاوم أن

يدفن وجهه في الماء القذر، فجأة يستطيع الوقوف والدماء تسيل من كل أنحاء جسده، يتلفت يمينا ويسارا بعصبية واندهاش، أين هي؟ أين هم؟!! أين ذهب الجميع؟ لا يوجد أحد على الإطلاق، فقط يمتلئ المكان من حوله بمئات الأجساد المنبطحة على وجوهها، يتحرك بعشوائية يفتش بينهم عله يجدها، يرى الكثير من الوجوه، لا يتوقف عند أحدا منهم، هذا صديقه وهذا والده وهذا.. وهذا.. ولكنه لا يهتم والأغرب لا يبكيهم!! لا يجدها بينهم وينهكه البحث والجثث من حوله لا تنتهي، يسقط منهكا ويضع رأسه بين قدميه ويبكى بحرقة شديدة، يفيق على صوت صراخ حاد شديد وصوت سوط فوق ظهره، ينتفض جسده بالكامل ويقفز من الألم، الآن يعدو مجددا لكنه الأبطأ بين المتسابقين، الكل يعدو بقوة ويأتون من خلفه ويمرون منه بكل سهولة، يقترب منه صديقه ويمد له يده، يتمسك بها باستماتة ويستعيد قوته من داخله مره أخرى، تقترب منهم شياطين بوجوه سوداء مفزعة، يضرب أحدهم بسيفه صديقه بكل قسوة حتى أن رأسه تطير في الهواء، يستمر في العدو وهو يرتعش ومازال يمسك بيده التي ثقلت بسرعة جعلته يتركها وهو فقط ينظر خلفه ولم يعد يميز مكانه فقد امتلأ الخلف بمئات الشياطين، يصرخ باسمها من أعماقه يناديها ينقذها وتنقذه..

تسقط فوقه حبال خشنة غليظة تحيطه بالكامل قبل أن يفهم ماذا يحدث ويقع مجددا مغلولا بالحبال، تنهال عليه السياط تجعل جلده يتطاير وهو يصرخ ولكن صرخاته لا تغادر فمه، يراها أمامه تحدق في عينه وهى تبتسم رغم عشرات الضربات التي تسقط فوق ظهرها العاري، يضربونها بوحشية وهى مازالت تبتسم وأحيانا تضحك، ثم تنهار وتبكى وهى مازلت تحدق إليه، يزحف على بطنه ويقترب منها

حتى يصل إلى يدها ويضمها بقوة، لا يعلم لماذا هم عرايا تماما، فقط..

يتأكد أن الشياطين تركتهم واستمرت في عدوها إلى الأمام، يتحامل حتى ينهض ويلتقط من الأرض معطف متهرئ ويضعه على جسدها، يحملها حتى تستطيع الوقوف وهو يضمها إلى صدره ويربت على رأسها، تجتاح أنفه رائحة جميلة يلتفت حوله يبحث عن مصدرها فيجده أمامه مهندما ويرتدى ثيابا براقة، يتجاوزه ويمد يده لها يدعوها للرقص، تفلت من بين ذراعيه وترتمي بين أحضانه وتتشابك أصابعهما ويرقصان بتناغم وحماس، يشتاط غيظا ويندفع نحوه يدفعه بعيدا و يجذبها من يدها ويهرول بها مبتعدا عنه، يشعر بيدها صغيرة بين أنامله كأنها يد طفلة صغيرة، يعدو بقوة أكبر ويتضاءل حجم يدها أكثر وأكثر حتى أنه يشعر أنه هو من أصبح عملاقا أسطوريا، يلمح أبنية المدينة تظهر من بعيد، يغمره الشعور باقتراب النجاة فيعاود الوثب والعدو بكل ما فيه، يسمعها تغنى له وتشير له نحو آخرين يعدون حولهم في نفس الاتجاه، يشعر بالاقتراب حتى أنه يشم رائحة الحديقة العتيقة في مدخل المدينة القديمة، تتسارع أنفاس الجميع فلم يتبق سوى خطوات ويصلون عند أول الطريق..

دوي انفجار ضخم ويكسو الغبار السماء، يتكرر صوت الانفجار مرات ومرات، ويسمع أصوات جنازير الدبابات بكل وضوح ثم يراها تحمل أعلاما سوداء وتسير بوحشية فوق جسد المدينة، تملأ أذنه أصوات الاستغاثة والفزع، يزداد حجم يدها بين أصابعه مرة أخرى و تنظر له باكية وهى ترتعد، الجنود بالملايين يضرمون نيرانهم من خلف الدبابات في كل مكان، لا أحد يدافع عن المدينة فقط الكل يسقط غارقا في دمائه، تخترق الرصاصات الأجساد من حوله حتى أن إحداها

تمر من جسده لكنه لا يشعر بألم، فقط ينزف بشدة، ترتعش يده الممسكة بيدها ويشعر بها تضعف ويتصبب العرق بين أصابعه بغزارة تتخطى دمائه، تعود سياط الشياطين تلهب ظهورهم من جديد، يخبئها بين ذراعيه يحاول حمايتها بينما تخرج من الأرض سياط أشد غلظة لا تمسك بها أيادي تلهب بطونهم العارية، تزداد أعداد الساقطين من حوله بين ميت ومرتعد زائغ الأعين، لا يعرف ماذا يحدث، أين هي؟!! متى أفلتها من يده؟! كيف لم يشعر بها وهى تغادر؟!!

ينتبه أن الليل لم يأتِ منذ ساعات، لماذا طال نهاره كل هذه الساعات؟ يريد الخروج يريد البَحث عنها موقنا أنها مازالت موجودة، يجذبه أحدهم بقوة ويدخله غرفة مظلمة يتوسطها طاولة مستديرة يجلس حولها الجميع، يتحسس جسده فلا يجد أثرا لجرح!! لم يعد يشعر بألم، لم يعد مترباً مكفهر الوجه، ينقل عينه بينهم الكل بلا ملامح بلا وجه، يقع بصره عليها في كامل زينتها تضع ساقا فوق ساق ويحيط جسدها رداء أحمر لامع يظهر مفاتنها للجميع، يأتيه صوت من المنتصف لا يميز صاحبه، فقط يسمعه يستجوبه، عليك الإجابة واجتياز الاختبار، تنزل ساقها العارية وتتقدم نحوه تضع أمامه ورقة بلا أسطر وقلما معقوف السن وهى تمسح على رأسه ويغمره عطرها الحاد، يمليه اسما ويطلب منه كتابته، بأصابع مرتعشة ضعيفة يمد يده نحو القلم بالكاد يستطيع الإمساك به، يتعثر القلم بيده ويفلت منه مرة بعد مرة، لا يستطيع كتابة الأحرف صحيحة، يعاود المحاولة مرات، تقترب منه تستند على كتفه تثقل ذراعه وتضعف يده، تعاود عليه الإملاء هامسة في أذنه، يحاول الكتابة لكنه لا يعرف لماذا كلما حاول يتبخر الاسم من رأسه كأنه لم يسمعه، لم يكتب الاسم الأول ولا الثاني ولا أي شيء مما سمع، فقط أحرف مبعثرة غير مفهومة..

يسمع صوت تصفيق يحيطه لكن لا أحد يحرك يده، تمسح بيدها على رأسه وتطبع قبله فوق جبينه وتناوله ملابس جديدة، تغمره حالة هدوء ورضا لا يفهم سببها، فقط يشعر بالانتهاء، يراها تتجرد من ملابسها وهى تنظر إليه وترسل له قبلات من فوق يدها، يتزاحم الكثيرون من حوله، الكل ينظر لها باستمتاع وهى تغازلهم جميعا، تمتد نحوها الأيادي تلمسها وتعصرها أحيانا، يمد يده دون أن يشعر نحوها يمسك بها يشعر بنعومة ملمسها يضمها إليه بقوة وتهمس في أذنه أنها له قبل أن تغادره وتستقر في حضن واحد تلو الآخر، يسقط على ركبتيه وينظر لها لكنها لا تلتفت إليه، أصبحت أعينها ذائغة يشعر كأن نظراته تخترقها لا تقف عند إنسان عينها، إنها لا ترى، هو فقط يراها الكل يحدق في جسدها لكنها لا ترى أحداً على الإطلاق، لا تغادرها ابتسامتها لكنها لا تشعر بأحد على الإطلاق، ينزع ملابسه أصبح لا يطيق شيئا فوق جسده، يشعر أنها عاهرة تلاطف الجميع، لم يعد يراها رويدا رويدا هو الآخر لم يعد يرى أحدا أو شيئا، يشعر بعينه متحجرة لا تتحرك لا شيء فيه يتحرك، فقط يتحرك كوحدة كاملة أو أن الأرض تتحرك من حوله، فقط يشعر أنه ينقلب يمينا ويسارا ولا تتغير ملامحه!!

أين هي؟!. لم تعد موجودة ينظر حوله يرى وجوها كثيرة يعرفها بل إنه يعرفهم كلهم ولكنهم جميعا يبكون، يقتربون منه يجردونه مما تبقى من ثيابه، لكنه لا يشعر أنه يتعري، إنه لا يشعر على الإطلاق، يغطون جسده بملابس جديدة بيضاء، لكنها معتمة تحيطه بالظلام ويختبئ الجميع خلفها لم يعد يرى منهم أحداً، مازال يسمع همهمات من حوله يتخللها البكاء، يشعر أنه يرتفع لأعلى ويتحرك لا يعرف إلى أين، يتوقف نظره خلف أجفانه لكنه يراها مجددا، يراها كما رآها أول

مرة، تضحك، وتجرى نحوه، ويدق قلبه بقوة من أجلها.. لكنها سرعان ما تتلاشى وتختفي دون أن تودعه، تتلاشى بين نباتات صغيرة تكسو الأرض في كل اتجاه، تثبت مقلتيه على فراغ المنظر بلا أي ملمح، تختفي الأصوات تماما ويزداد رداؤه إعتاما، لم يعد يرى أي شيء لم يعد يتذكر شكل الألوان، لحظات من الصمت التام والظلام المطبق أو ربما ساعات أو حتى أيام لا يهم حتى إن كانت مئات السنين، فقط لم يشعر، لم ينتبه لشيء سوى الظلام خلف أجفانه المغلقة، تنتابه رغبة شديدة في السعال، يشهق بقوة وكأن حنجرته ستغادر رقبته، يعاود الإحساس بجسده لكن حركته مازالت ثقيلة جدا، يصارع حتى يتمكن من فتح عينيه، يغلقها سريعا فلم يحتمل الضوء حوله..

يتحامل ويعيد المحاولة حتى يستطيع فتح عينيه ولكن الصورة مازالت مشوشة، تختلط الصور أمامه فقط يميز أنه أمام مساحات ممتدة من اللون الأبيض، تضح الرؤية رويدا رويدا حتى يميز طائرا عملاقا مهولا على بعد خطوات منه أو أمتار أو أكثر، لا يمكنه التمييز على أي حال، لا يرى له ملامح لا تتمكن عيناه من الوصول لوجهه، فقط يراه مموهاً ضبابياً، لا يميز سوى جناحين عملاقين يتحركان ببطء مخيف، يشعر بسخونة تأتى من خلف الطائر بالأدق من خلف يساره لا يعلم مصدرها لكن يشعر بها تلفح وجهه، يصيح عليه يناديه بلا شيء فلا يعرف بماذا ولماذا يناديه، ينهض بصعوبة ويتعثر ثم يعاود النهوض، يلوح له بيده ثم يضعها أمامه فقد ازداد إحساسه بالسخونة، يشعر به يتحرك يحجب عنه تلك السخونة وهو يفرد جناحه الأيمن العملاق ليشعر ببرودة مريحة تحيط به تنعشه من جديد، تقفز صورتها أمام عقله، يتذكرها ويعتصر قلبه شوق محموم لها يجعله يترك جسده يخر ساقطا

لكنه لا يسقط لا يمكنه السقوط فلا يوجد أرض تتلقفه... فقط لفائف من ثلج أو قطن أو مجرد خيال، يفيق من حيرته على صوت ماء يتدفق نحوه، يتذكر أنه يشعر من مد طويلة بالظمأ، يمد كفيه يملؤهما بالماء، لا يشعر بالارتواء لكنه لم يعد في حاجة لأكثر..

يسمع صوتها يناديه بهمس وعذوبة تجعله يرفع رأسه بحثا عنها، يمينا ويسارا، أين هي؟ لا يزال لا يراها، يرتفع الجناح العملاق أكثر ويراها تقترب من ناحيته، تملؤه فرحه مؤقتة سرعان ما تتلاشى، ليست هي، تقترب منه ويتبين ملامحها، فائقة الجمال حتى أنه لا يستوعبه، يشعر أن عينه تخترقها، يستطيع رؤية ثيابها وينفذ لجسدها شديد البياض حتى يتخطاه ويري من خلفها الجناح العملاق، تقترب منه أكثر ويعلو من حولها صوت نغمات يذيب قلبه ويميل عقله، تعانقه بقوة ويغرق معها في قبله من أعماقه حتى يسيل ريقه ويراه يعبر من فمها ويتخللها، الآن يشعر أنه يطير ويحلق في نفس مكانه، تجذبه وتجرى به نحو الجناح وهو يشعر برغبة تجتاحه أن يترك يدها، يقتربا أكثر ويعاوده الإحساس بالسخونة في نصفه، يحاول الاختباء خلفها لكنها لا تمنع عنه السخونة، يتملكه الفزع ويشد يده منها بقوة، يتطلع لأعلى يحاول أن يجبر بصره على رؤية وجه الطائر، يعاود النداء، أين هي؟ أين هي؟ لا يريد أن يغادر، لا يشعر برغبة في تلك الفتاة الشفافة، يريد البكاء ولا تطاوعه عيناه، يصرخ ويصرخ والسخونة تزيد من حوله لكنه لم يعد يكترث، يفكر في الهرب ويهم أن يفعل قبل أن يرتطم بأحدهم ويجد نفسه فجأة بين الكثيرين، متى أتوا؟!! من كل هؤلاء؟!

لم يعد وحيدا أصبح يشعر أنه حبة رمل في صحراء لا تنتهي، يفتش عنها بينهم، تتشابه أمامه الوجوه حتى أنها تتطابق، السخونة تزيد وتزيد

ويشعر بها فوق رأسه، يبحث عن الطائر العملاق، يزاحم ويصارع للوصول إليه، يجثو أمامه منهكا غارقا في عرقه، يسأله عنها باستعطاف، تسقط فوق رأسه ريشة عظيمة يشعر أنها شقت رأسه وشطرته نصفين، يغيب ويعود مرات ومرات ثم تلبسه حيويته من جديد وتجعله ينهض منتعشا قويا، لا يتذكرها، لا يتذكر شيئا على الإطلاق، تقترب منه الفتاة الشفافة تمسك بيده وتجذبه نحوها، يبتسم دون سبب ويغرق بين شفتيها في قبله طويلة وهما يتمايلان فوق عشب أخضر ناعم ويسيل ريقه في فمها مئات المرات فلم يعد يشعر بالانتهاء، لم يعد يشعر على الإطلاق، فقط يتمايل ويتمايل فوق العشب الأخضر.....

ـ مالك يا عم إبراهيم؟! – انت سرحان في إيه؟

يستفيق عم إبراهيم على صوت الشيخ عبد الرحيم التربى وهو يضرب بكفيه بتعجب : لا حول ولا قوة إلا بالله..

ـ مش عارف ليه يا شيخ عبد الرحيم المتوفى ده خلع قلبي وإحنا بندفنه – سبحان من له الدوام ..

ـ يعنى هي دي أول مرة ندفن فيها شاب صغير يا عم إبراهيم؟! ولا دايم إلا وجه الله، لله ما أعطى ولله ما أخذ، مش هايعز على اللي خلقه .. قوم.. قوم بينا نلحق العصر جماعة..

يتأكد إبراهيم من قفل باب القبر وهو يتمتم بشفقة: ربنا يرحمك ويغفر لك يا بنى..